من روائع القديس أغسطينوس

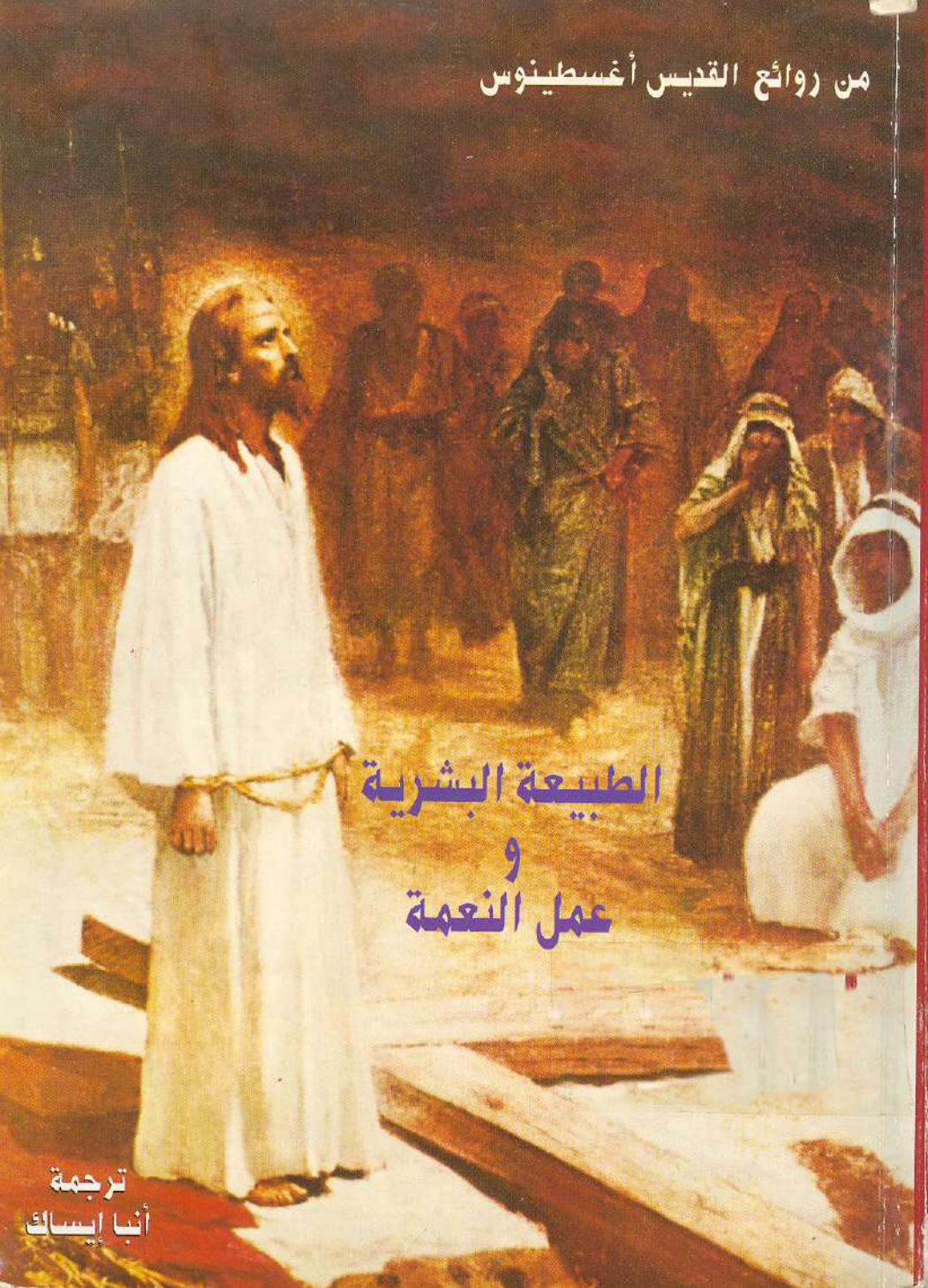

الطبيعة البشرية
و
عمل النعمة

ترجمة
أنبا إيساك

الطبيعة البشرية
وعمل النعمة

من روائع القديس أغسطينوس
ضد البيلاچيين

ترجمة
أنبا إيساك

اسـم الكتاب : الطبيعة البشرية .. وعمل النعمة
المتـرجـــم : الأنبا إيساك
النـاشـــــر : مكتبه كنيسة مارجرجس باسبورتنج
الطبعـــــة : الأولى يونيو ١٩٩٧
المطبعـــة : مطابع كونكورد ت : ٢٠٥٧٩٠٢ ـ ٢٠٥٧٩٠٣
رقم الإيداع : ٣٢ / ٧ / ٩٧

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

مقدمة

بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. امين

في سكون البرية، ومع عمق الليل الجميل، جلستُ في ركني المعتاد في قلايتي بالدير..

بدأت أمام المسيح في محاسبة النفس وفحص الضمير كالمعتاد.. آه يارب، حتى متى تهيمن عليَّ الضعفات وتغلبني الخطايا..؟ إلى متى يارب.. إلى متى تتساني بعيدًا عن خلاصي..؟ ولم ألبث حتى أتاني الرد كنور من السماء أضاء عقلي وقلبي "**أشكر الله، نعمة ربنا يسوع المسيح**" (رو٧:٢٥) وعلمت أنه **مع كل الجهادات الروحية لابد من عمل النعمة** لكي أتحرر ولكي أغلب.. لأننا بدون المسيح لا نستطيع أن نفعل شيئًا (يو١٥:٥) بعدها، غمر السلام داخلي بفعل ذلك الإعلان الإلهي.. وللاستزادة بدأت أقرأ من مجموعة آباء نيقية، وبعد نيقية؛ **مقالة:**

الطبيعة البشرية وعمل النعمة

للقديس أوغسطينوس..

Nature and Grace - N & P. N Ser 1 Vol 5

وما أن وصلت للفقرة الرابعة من هذه المقالة حتى تدفقت تعزيات إلهية غامرة في قلبي، وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري.

وبدأت في ترجمة المقال كإحدى الروائع الآبائية من تراث الكنيسة.. ثم شاءت عناية الله، وبتشجيع من آباء أحباء أن يُطبع هذا الكتاب بعد المراجعة والتنقيح ووضع العناوين الجانبية، وينشر ليصل بين يديك يا قارئي العزيز بهذه الصورة التي أرجو أن تجد نعمة في عينيك.

ألتمس من الله، إله كل نعمة أن يعوّض كل من له تعب.. وأن يجعل هذا الكتاب

سلامًا وبنيانًا لكنيسة ا لله المقدسة

بصلوات حضرة صاحب القداسة

البابا شنودة الثالث

وشريكه في الخدمة الرسولية

نيافة الأنبا متاؤوس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

لإلهنا كل المجد إلى الأبد..

آمين،،

إيساك

الثلاثاء أول كيهك ١٧١٣ش

١٠ديسمبر ١٩٩٦م

بدء الشهر المريمي المقدس

الطبيعة البشرية
و
عمل النعمة

للقديس أُغسطينوس

١ المقالة التى أرسلتماها إلىَّ ياعزيزىَّ تيماسيوس وياكوبوس ضمن رسالتكما ، وتطلبان منى أن أرد عليها ، هذه المقالة (التى لبيلاچيوس) قد تصفحتها بلهفة وتمعن . وبعد أن استبعدت منها كل الأراء المعروفة والواضحة والتى لا خلاف عليها ويعرفها كل أحد ، وجدت فى أفكارها الأخرى للأسف هجوماً حماسياً على من يعترفون بضعفهم ويلقون تبعة سقوطهم فى الخطايا على فساد طبيعتهم البشرية بوجه عام حيث يقول : « أن الواجب أن يوجهوا لومهم إلى ضعف إرادتهم الخاصة ولا يلتمسون المعاذير لكى يبرروا أنفسهم ! » . إن أسلوب المؤلف للمقالة يظهر غيظاً وضيقاً متأججاً ضد من يقولون أن الطبيعة البشرية هى طبيعة فاسدة . وهو لا يختلف كثيراً فى تعبيراته عن المؤلفين العلمانيين ، حيث يقول أحدهم : « أن الجنس البشرى يشكو شكوى زائفة من طبيعته » (من مقدمة ساليوت) ، ونفس هذا المعنى هو ماأكده مؤلف المقالة بكل إصرار مستخدماً كل قواه ومواهبه ! .

ظروف كتابة هذا المؤلف

بيلاجيوس يدافع بأن الطبيعة البشرية ليست فاسدة

وإننى أخشى أن يبلاجيوس سيكون بهذا المقال مناصراً رئيسياً للذين « لهم غيرة الله ولكن ليس حسب المعرفة . لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم ، لم يُخضعوا لبر الله » (رو ١٠ : ٢ ، ٣) .

ماهو بر الله الذى تتحدث عنه هذه الآية ؟ سنجد الرد فى الآية التالية مباشرة : « لأن غاية الناموس هى المسيح للبر لكل من يؤمن » (رو ١٠ : ٤) .

ماهو بر الله

بر الله ليس هو فى وصايا الناموس التى تبث الخوف كما من مؤدب (غل ٣ : ٢٤) ، بل هو السند والمعونة التى تُمنح للانسان بنعمة المسيح ، وبها يستطيع الانسان تكميل وصايا الناموس .

المسيحى هو الذى نال البر بدم المسيح

من فهم هذا ، يفهم لماذا هو مسيحى لأنه : « إن كان بالناموس بر ، فالمسيح إذن مات بلا سبب » (غل ٢ : ٢١) ولكن يستحيل أن يكون المسيح قد مات بلا سبب ، لأن سبب موت المسيح هو لكى يبرر الأثيم . فبصليب المسيح وحده ، يتبرر كل أثيم . وكل من يؤمن بمن يبرر الفاجر ، يُحسب الإيمان له براً » (رو ٤ : ٥)

« لأن الجميع (بلا استثناء) قد أخطأوا وأعوزهم مجد الله . متبررين مجاناً بدمه (رو ٣ : ٢٣ ، ٢٤) أما الذين يستثنون أنفسهم من بين « الجميع الذين أخطأوا وأعوزهم مجد الله » فلا حاجة لهم طبعاً أن يكونوا مسيحيين لأن الأصحاء لايحتاجون إلى طبيب بل المرضى (متى ٩ : ١٢) وأيضاً لأن المسيح لم يأتِ ليدعوا أبراراً بل خطاة إلى التوبة (متى ٩ : ١٣) .

٢ إن طبيعتنا البشرية أصبحت مريضة وخاطئة لأنها نابعة من طبيعة جسد المعصية الأول الذى لايقدر من تلقاء نفسه أن يتمم ناموس الله ، ولا يستطيع أن يكملْ فى البر . لأنه لو كانت طبيعتنا البشرية قادرة على هذا بمفردها لضمنت حياتها الأبدية ، حتى بدون دم المسيح والإيمان به ، ولما انتظرت الأمم والأجيال أستعلان سر الألوهية

لو قدرت الطبيعة البشرية أن تتبرر أمام الله بمفردها لما احتاج

الأمر إلى تجسد المسيح وصلبه وقيامته

الذى ظهر فى الجسد (١ تى ٣ : ١٦) . لأنه لو كان فى الطبيعة البشرية كمال البر ، لما تجاهل الله أن يجازى كل انسان بار على بره ، لأن الله ليس بظالم . ولكن الطبيعة البشرية لا تستطيع بدون المسيح ، أى بدون الله ، الذى ظهر فى الجسد ، أن تكمل فى البر ، لذلك احتاجت أن تسمع التبشير والكرازة كى تؤمن .« فكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به ، أو كيف يسمعون بلا كارز ؟ (رو ١٠ : ١٤) « لأن الإيمان من السمع ، والسمع لكلمة المسيح . ولكنى أقول لعلهم لم يسمعوا ، بلى ، إلى كل الأرض خرج صوتهم وإلى أقاصى المسكونة أقوالهم » (رو ١٠ : ١٧ ، ١٨)

هل يتجاهل الله بر الإنسان إن وجد ؟

لماذا الكرازة بالمسيح ؟

ولكن ماذا عن ماقبل مجئ المسيح ، وماقبل وصول الكرازة عملياً إلى كل أقطار الأرض ، لأنهم يقولون أن هناك قلة من أقطار الأرض لم يجد الأنجيل طريقه إليها بعد ؟ مالذى يمكن أن تفعله الطبيعة البشرية هناك حيث لا يعرفون الأنجيل ؟ أنهم يرتكبون خطايا وهم لايدرون أن تلك الأفعال لا ينبغى أن تُعمل . هناك احتمال أن يوجد بينهم من يتأمل فى مصنوعات السماء والأرض فيؤمن أن هناك خالقاً للسماء والأرض ، ومن ثم يدركون أن طبيعتهم البشرية ذاتها مخلوقة ، ويحاولون إتمام إدارة الإله الخالق بأن يحيوا حياة بارة وهم لم يسمعوا شيئا عن موت المسيح وقيامته ، فهل يستطيعون أن يتبرروا على هذا النحو ؟

ناموس موسى بلا فائدة ، فكم بالحرى الناموس الطبيعى ؟

أقول ، حتى لو أمكن أن يحدث هذا ، فإننى أتمسك بما قاله الرسول عن ناموس موسى « لو كان بالناموس بر ، فالمسيح إذن مات بلا سبب » (غل ٥ : ١٧)

فإن كان قد قال هذا عن ناموس لم تتلقاه إلا أمة واحدة هى أمة اليهود ، فكم بالحرى جدا ينبغى أن تطبق نفس الآية على الناموس الطبيعى السائد فى الجنس البشرى كله ، فنقول على نفس القياس : « **أنه لو كان فى الناموس الطبيعى الذى للطبيعة البشرية بر ، فالمسيح إذن مات بلا سبب** » .

المسيح لم يمت بلا سبب

ولكن موت المسيح لم يكن بلا سبب ، ودم المسيح لم يسفك هدراً ، فلا يمكن اذن أن تتبرر الطبيعة البشرية بأى حال من الأحوال ولا أن تفتدى من غضب الله العادل (أى عقوبة الدينونة) إلا بالإيمان بدم المسيح ، وقبول القدسات السرائرية المنوحة لنا فى المسيح .

٣ فى البداية كانت الطبيعة البشرية مخلوقة بلا عيب ، وبدون أى خطيئة . أما تلك الطبيعة التى يولد بها كل أنسان الآن من آدم فهى طبيعة مريضة ومعلولة ، وفى حاجة إلى الطبيب يسوع المسيح . لأنها قد فسدت وفقدت تعقلها ومعقوليتها .

فساد الطبيعة بدأ بعصيان آدم

حقاً مازال بلاشك فى الطبيعة البشرية قدرات صالحة باقية منذ تكوينها كالحياة والأحاسيس والذكاء .. الخ . كل هذه كانت من الله العلى ، مكونها وجابلها . ولكن تياراً جارفاً أكتسح هذه الطبيعة ، فعتم وأضعف كل تلك القدرات

الطبيعية ، حتى أنها فى حاجة إلى الأستنارة والشفاء من آثار ذلك التيار الكاسح ، الذى لم يكن مصدره الله طبعا ، لأن الخالق منزه عن أى خطأ .ولكنها كانت خطيئة الانسان الأصلية التى أرتكبها بمحض إرادته الحرة . وبناءً عليه ، أصبحت الطبيعة البشرية مذنبة ومحرمة وتستحق حكم الدينونة والعقاب العادل .

حقاً لقد صرنا الآن خليقة جديدة فى المسيح (٢ كو ٥ : ١٧) إلا أننا كنا : « أبناء الغضب كجميع الباقين » (اف ٢ : ٣) الله الذى هو غنى فى الرحمة من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها ، ونحن أموات بالذنوب والخطايا أحيانا مع المسيح ، الذى بنعمته قد خلصنا » (اف ٣ : ٤ ، ٥) .

٤ بدون نعمة المسيح هذه ، لا يخلص طفل ولا أشيب بأى حال من الأحوال . وهى لا توهب بناءً على أى استحقاق حيث أنها سميت نعمة ، أى لكونها توهب إنعاماً بدون أى مقابل . نعمة مجانية

يقول الرسول : « متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح » (رو ٣ : ٢٤) . إذن فجميع الذين لم يتحرروا من طبيعتهم الفاسدة بالنعمة ، سواءً لأنهم لم يُكرز لهم وبالتالى لم يسمعوا ، أو لكونهم سمعوا ، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يطيعوا أو لأنهم بعدما سمعوا لم يمهلهم الوقت لأن يقبلوا حميم الميلاد الثانى الذى كان يجب أن يقبلوه ليخلصوا .. كل هؤلاء هم بالعدل تحت دينونة الله ، لأنهم ليسوا أبرياء من الخطيئة . سواءً تلك الخطيئة التى ولدوا بها أو الخطايا التى اضافوها بسوء سلوكهم « لأن الجميع قد أخطأوا

كل من لم يبرره المسيح هو تحت دينونة الله العادلة

- سواءً من آدم أو من أنفسهم - وأعوزهم مجد الله » (رو ٣ : ٢٣) .

٥ طالما أن جميع الناس بلا استثناء قد أخطأوا فى ادم ، إذن فهم مذنبون وتحت الدينونة والمعاقبة . وطالما الجميع مدانون ، فمن العدل توقيع العقوبات عليهم . أما الخلاص والنجاة من حكم الدينونة ، فهذا سوف لا يكون إلا إنعاماً كنعمة مجانية ممنوحة من المراحم الإلهية لذلك يطلق على الذين سيخلصون أنهم أوانى للرحمة (رو ٩ : ٢٣) وليس لاستحقاقاتهم .

عدالة الله تدين الجميع

الله هو الذى يرحم ، أنه هو الذى أرسل المسيح يسوع إلى العالم ليخلص خطاة سبق فعرفهم ، وسبق فعينهم ، ودعاهم وبررهم ومجدهم » (رو ٨ : ٢٩ ، ٣٠)

ومراحم الله تخلص البعض

فمن ذا الذى لايريد أن يقدم شكره وحمده الأبدى للمراحم الإلهية التى خلصته بدون أستحقاق منه متمسكاً بقدراته وإمكانياته الطبيعية ! ومن ذا الذى يلوم عدالة الله فى إدانته لجميع الناس أياً كانوا ! .

٦ إن كنا نقتنع ببساطة الحكمة التى فى الأسفار الإلهية المقدسة ، فيجب أن نتقبل نعمة المسيح المجانية بلا ملاحجة ولا جدال . ولا نحاول أن ندافع عن طبيعة إنسانية وكأنها غير محتاجة إلى الطبيب السمائى ، كما يقولون : « أن هذه الطبيعة البشرية بريئة ونقية وهى فى مرحلة الطفولة ، وعندها القدرة الكافية لبلوغ البر أن هى أرادت فى مرحلة البلوغ ، فماذا يعوزها إذن ؟ .

الدفاع عن عدم فساد الطبيعة البشرية ضد الأنجيل

يبدو أنهم إناس يُجهدون عقولهم باطلا محاولين العثور على نصوص لتدعيم آرائهم ، تلك الأراء التى ليست أكثر من حكمة بشرية ، يبطل بها تأثير صليب المسيح (اكو ١ : ١٧) ليست هذه على أية حال حكمة نازلة من فوق (يع ٣ : ٥) ولاأريد أن أكمل ماقاله الرسول يعقوب فى وصف حكمتهم هذه لئلا يتأذى أولئك الذين نأسف على كونهم أستخدموا عقولهم النشطة القوية فى مسالك معوجة ليست مستقيمة .

أيضاً هى حكمة بشرية شيطانية

٧ لقد شن مؤلف الكتاب الذى أرسلتماه إلىَّ حرباً شعواء على من قالوا بعجز الطبيعة البشرية وضعفها ، مدعياً إن هذا تبرير للخطايا المرتكبة ! **ولكن مهما كانت الغيرة التى ابداها ، فإن غيرتنا هى أكبر بكثير ، وينبغى أن تزداد غيرتنا أكثر فأكثر كى نسد الطريق على كل من يحاولون أن يجعلوا صليب المسيح باطلاً وبلا تأثير** . لإن صليب المسيح يصبح فعلاً بلا نفع لو وجدت وسائل أخرى غير قدسات المسيح (الأسرار) يمكن للإنسان بها أن يكمل فى البر وينال الحياة الأبدية ؛ وهذا للأسف هو ماحاول المؤلف أن يبرهن عليه ! .

الدافع الذى جعل أغسطينوس يرد

بدعة بيلاجيوس تلغى عمل المسيح

اعتقد أنه ربما يكون المؤلف منساقاً وراء احساس لا شعورى ، ولا أريد أن أقول أنه استخدم عقله وذكاءه ليصل إلى ماوصل إليه من إستنتاجات ، حتى لا أحكم عليه بقولى أيضا أنه لا يستحق أن يكون مسيحياً . على أية حال ، لقد صنف كتابه هذا بكفاءة عالية جداً ، وأننى أريد أن

وفلسفة البشرية تؤدى باتباعها إلى الخبل

عليه بقولى أيضا أنه لا يستحق أن يكون مسيحياً . على أية حال ، لقد صنف كتابه هذا بكفاءة عالية جداً ، وأننى أريد أن أنبهه فقط بأن قدراته المنطقية التى أفصح عنها قد تؤدى بالمسيحيين الذين يعتنقون آراءه إلى الخبل أن هم تعودوا تطبيقها .

تفنيد آراء بيلاجيوس

٨ فى بداية مقالته ، يضع مؤلفكم نصا كقاعدة منطقية ، نحن لانختلف عليها ، وهو : « الشئ الذى يمكن عمله ، قد يُعمل فى الواقع وقد لا يعمل ، فالممكن شئ ، وتطبيقه على الواقع شئ آخر » .

بيلاجيوس يضع قاعدة منطقية

ولا اعتراض لنا على هذه القاعدة المنطقية فما هو كائن فى الواقع ، لابد وأن يكون من الممكن أن يكون ، ولكن العكس ليس صحيحا على الاطلاق ، فكل ماهو ممكن ليس بالضرورة أن يكون كائناً فى الواقع . فنحن نعلم على سبيل المثال أن الرب يسوع المسيح أقام لعازر من الموت ، فهذا بلا شك يدل على انه كان قادراً أن يقيمه ، ولكن كون الرب يسوع المسيح نفسه لم يقم يهوذا من الموت ، فلا يمكننا أن نستنتج من هذا أنه غير قادر أن يفعل هذا فالرب يسوع المسيح كانت لديه القدرة بكل تأكيد . ولكنه لم يفعل ، فلو أراد لفعل حيث أن : « الأبن يحيى من يشاء » (يو ٥ : ٢١) .

ولكن أنظروا وتمعنوا ، ماذا كان يقصده (بيلاجيوس) من التشديد على ذلك التمايز بين الإمكانية والفعل ، وماذا حاول أن يستنتج من ذلك .

يقول : « إننا نحاول أن نناقش فيما هو ممكن ، ثم بعد ذلك نتقدم بالخطوة الأخرى إلى الفعل ، باستثناء حالات معينة نعتبرها غير عادية وخطرة جداً » .

ولقد أطنب مؤلفكم وأطال الشرح فى هذه النقطة ، وعاد وكررها مرات ومرات بطرق كثيرة حتى أن القارئ قد يفترض أنه سوف لا يناقش أى نقطة أخرى غيرها ، حتى موضوع إمكانية عدم إرتكاب أى خطيئة . ولكن من بين الفقرات العديدة التى أعاد وأزاد فيها ، أستطعنا أن نلتقط أخيراً هذه العبارة :

« أكرر موقفى مرة أخرى فأقول أنه من الممكن لأى انسان أن يكون بلا خطيئة ، وقد ترد أنت علىّ بأنه من المستحيل أن يكون هناك انسان بلا خطيئة ، حسناً ، ولكنى لم أقل أنه يوجد انسان بلا خطيئة ، ولا أنت تقول ان ثمة انسان كائن بلا خطيئة .. فليكن نقاشنا إذن عن ماهو ممكن ، وماهو غير الممكن ، وليس ماهو كائن ، وماهو غير كائن على الواقع » .

ثم يذكر بعد ذلك أيات معينة من الكتاب المقدس تبين أن الجميع زاغوا وفسدوا وليس أحد خالياً من دنس ولو كانت حياته يوماً واحدا على الأرض (اى ١٤ : ٢ ، ١ مل ٨ : ٤٦ ، سى ٧ : ٢١ ، مز ١٤ : ١) .

بيلاجيوس يُخضع آيات الانجيل لقاعدته المنطقية !

ورغم أن هذه الآيات تشهد ضده بوضوح ، إلا أنه يُصر بأن لا علاقة لهذه الآيات بالموضوع المتنازع عليه ،

أعنى موضوع إمكانية تواجد انسان بلا خطيئة ، أم استحالة تواجد مثل هذا الانسان . وهذا نص مايقوله :

« حقاً ليس أحد خالياً من دنس ، ولا يوجد انسان إلا ويخطئ ، وليس هناك بار ، وليس من يعمل صلاحاً .. إلى آخر هذه الآيات ومثيلاتها من الكتاب المقدس التى لاتشير إلى عدم وجود إمكانية عند الانسان أن لا يخطئ ، بل إلى الحاصل على الواقع . فالآيات تشير إلى نوعية اصناف معينة من الناس كانوا فى مكان ما وزمان ما ، وليس فى كونهم غير قادرين أن يكونوا على غير ماهم عليه ، ولذلك وجه الكتاب المقدس لهم اللوم . فلو كانوا ببساطة غير قادرين أن يكونوا على غير ماهم عليه فلماذا يلامون إذن ، لأنهم آنذاك يكونون أبرياء » .

٩ فى حالة ولادة طفل فى أوضاع لا يُسمح له فيها بنوال معمودية المسيح ، ثم مات طفلا بدون حميم الميلاد الجديد ، فانظروا بماذا يفتى صاحبكم (بيلاجيوس) ، فى مثل هذه الحالة ، أنه يعطيه حلاً ، فاتحاً له ملكوت السموات ومؤكداً أن لا دينونة علَيه ، هذا على الرغم من دينونة الله له . على أية حال أن الرسول بولس لايعطى حلاً لمثل هذا الطفل حيث قال : « بإنسان واحد دخلت الخطيَئة إلى العالم وبالخطيئة الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس اذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢) فهذا الاستذناب الوحيد فقط يسرى على الكل بما فيهم ذلك الطفل ، ولذلك لا يُسمح له بالدخول إلى ملكوت السموات

لو مات طفل بدون معمودية لا يدخل الملكوت

ليس لأنه غير مسيحى فقط بل وحتى لأنه غير قادر أن يكون مسيحياً .

١٠ لكن (البيلاجيين) يقولون : « إن مثل هذا الطفل لا لوم عليه . أما من جهة ماقيل بأن الجميع قد أخطأوا فى آدم ، فليس المقصود ان الجميع خطاة بالمولد ولكن المقصود ان المولود قد يتشبه بالوالد وينسج على منواله » .

آدم ورثنا طبيعة فاسدة وليس قدوة سيئة

ونحن نرد على ذلك : لو قلنا أن آدم جعل بنيه خطاة بأن نسجوا على منواله ، وليس لكونه ورثهم طبيعة خاطئة من حيث أنه كان هو أول خاطئ فى الجنس البشرى ، فلماذا لم نضع بالمثل هابيل البار ، أوليس المسيح على رأس كل الأبرار من حيث أنه هو كان أول رجل بار فى الجنس البشرى ؟ .

ولنأخذ المثل على كهل أو شاب (وليس طفل) مات فى مكان لا يُسمع فيه اسم المسيح ، فهل يقدر ذلك الانسان أن يكون باراً من تلقاء ذاته ، بطبيعته وإرادته الحرة ، أم أنه لايقدر ؟ لو قال (البيلاجيون) أنه يقدر ، فأحكموا أنتم على من يريدون أن يجعلوا صليب المسيح بلا سبب (١كو ١ : ١٧)

لا تبرير إلا بالمسيح

وبصفة عامة : **أن أى مجادلة حول إمكانية أن يكون الانسان باراً بدون صليب المسيح سواءً بناموس ، أم بفطرته الطبيعية أم بقوة إرادته ، هى محاولة جعل صليب المسيح باطلا** (غل ٢ : ٢١) .

لأنه يتحتم على الجميع أن يكونوا ابراراً ، فحتى لو لم يتجسد المسيح ويموت ، يظل غير الأبرار هكذا بإرادتهم ، وليس لأنهم غير قادرين أن يكونوا أبراراً . ولكن لأن الإنسان لا يستطيع أن يتبرر إطلاقاً بدون نعمة المسيح ، فليقاوح (بيلاچيوس) ، أن يحالل مثل ذلك الإنسان لو جرؤ ، كما قال هو بالنص :

« لو أن إنسانا لم يتمكن من أن يسمع عن المسيح أو يقبل معموديته فليس عليه لوم ولا دينونة » ! .

١١ ثم يضع (بيلاچيوس) اعتراضا على نفسه من تصوره الخاص كما لو أن إنسانا آخر يجادله فيقول :

بيلاجيوس يستخدم بهلوانية المنطق ليثبت رأيه

« قد تقول ، لو تمكن إنسان ما أن يكون بلا خطيئة ، فإن هذا سوف لا يكون إلا بنعمة الله .. » .

حينئذ يقاطع هو نفسه على الفور مجيباً نفسه على ماافترضه :

« شكرا لك على تفضلك بسحب معارضتك وما كنت تعترض به علىّ من مدة وجيزة وترفض أن تقر به كحقيقة مجردة . ولم تكتف بهذا فقط ، بل إنك قد ذهبت إلى مدى أبعد من مجرد الإقرار به وبدأت تناقش فى وسائل تحقيقه فعلا لأن قولك أنه من الممكن للانسان أن يكون بلا خطيئة ، فسواء بهذا أم بذاك ، هذا لا يهم ، المهم أن تؤكد الإمكانية أولاً وبعد ذلك نستزيد إيضاحا فى أسلوب وشروط ووسائل تحقيق هذه الإمكانية . فالشخص

الذى يضع شروطاً لعمل ما لاشك أنه يصادق على إمكانية عمله ، ومناقشة الشروط لابد وإن يسبقها قبول العمل » .

وهنا ينسى (بيلاچيوس) أنه يجاوب على نفسه ، أما من جهتى فإننى لا أعترض على الأمر أصلاً . على أية حال ، دع (بيلاجيوس) يتصور أسئلة ضد من أراد ولكن الذى يهمنا أن لا ينكر (إن لم يكن مجرما واثيما فى حق المسيح) أنه بدون نعمة الله لايمكن لانسان أن يكون بلا خطيئة ، لأن فى رده مراوغة بأن الانسان يمكنه أن يكون بلا خطيئة سواءً بالنعمة أم الطبيعة أم حرية الإرادة أم المساعدة أم الرحمة ..... سيان ! .

١٢ من ناحية أخرى ، أعترف لمحبتكما أننى قد امتلأت فرحاً عندما قرأت كلمات (بيلاجيوس) التى فيها لا ينكر عمل النعمة ، لأن إنكار عمل النعمة هو ما أبغضه وأخافه فى جدلنا هذا ، ولكنى عندما واصلت قراءة كتاب (بيلاچيوس) بدأت تساورنى الشكوك من جديد عن مفهومه للنعمة من الأمثلة التى استخدمها فى البداية ، حيث قال :

مفهوم النعمة مشوش عند بيلاجيوس

« لو قلنا أن انسانا قادراً على التحدث ، وطائراً قادراً على الطيران وغزالاً قادراً على العدو ، ولم أذكر الأعضاء المتاحة لكلٍ والتى يتمم بها هذه الأفعال كاللسان ، والأجنحة ، والأرجل ، فهل فى عدم ذكرى الأداة أكون غير مدرك للفعل ذاته ؟ » .

ونلاحظ من الوهلة الأولى أنه يضرب أمثلة بأمور لها كفاءة طبيعية وأعضاء فى جسمها وهى اللسان ، والأجنحة ، والأرجل للقيام بعملية الكلام والطيران والعدو ، فهو لا يأخذ النعمة بالمفهوم الذى نفهمه عليها ، تلك التى بدونها لا يتبرر انسان . النعمة التى تشفى طبيعة الانسان المعتلة ، وليست هى امكانيات ووظائف تلك الطبيعة ..

وعندما اختلطت المفاهيم واصلت قراءة باقى كتابه ، فوجدت على الفور أن شكوكى فى محلها .

١٣ وعندما تناول (بيلاجيوس) فى مقالته موضوع اختلاف الخطايا بعضها عن بعض ، ساق اعتراضا على نفسه أيضا ورد عليه ، قال :

بعض الخطايا عند بيلاجيوس فى عثرات طفيفة لا لوم عليها

« يزعم البعض أن بعض الخطايا يستحيل تجنبها من أجل شيوعها وهجومها الدائم » .

والعجيب أن (بيلاچيوس) فى رده على هذا الزعم ينكر اعتبارها خطايا ويقول :

« ولكن من الأجدر اعتبارها عثرات طفيفة طالما لايمكن تجنبها بأى طريقة » ! .

دور وصايا الناموس هو تحريك الانسان لإلتماس نعمة الله

إنه لم يلاحظ بلا شك أن فتواه هذه تتعارض تعارضا مطلقا مع ماتنادى به اسفار العهد الجديد . حيث نتعلم منها أن غاية وصايا الناموس هى أن ينتقد الإنسان ذاته ويشعر أنه مذنب ويجعل الانسان مقتنعا أنه مثقل بتعديات ارتكبها فعلا .. حينئذ يفزع مستنجداً بالنعمة الإلهية التى من عند الرب الذى يرحمه . فالناموس هو

« المؤدب » (غل ٣ : ٢٤) الذى يغلق على الكل فى العصيان إلى حين استعلان الإيمان بالمسيح الآتي » (غل ٣ : ٢٣) وبهذا الإيمان تغفر لهم خطاياهم ، ويتبررون ، ولايعودون إلى ارتكاب المعاصى بعمل نعمة الله فيهم .

إن وصايا الناموس هى الطريق الذى يركض فيه الجميع ، وكل من يتقدم أكثر يقرب إلى الكمال أكثر . ولكن ذروة الكمال الذى لا يقبل إضافة عليه هى بلوغ الغاية التى يسعى الناس إليها وهى كمال البر ، وهذا لايكون إلا بالمسيح ، لأن غاية الناموس هى البر الذى فى المسيح (غل ٣ : ٢٣)

١٤ لقد ذكر (بيلاچيوس) أنه سُئل سؤالا خاصا وهو : « هل أنت نفسك بلا خطيئة ؟ » ، ورغم أن هذا السؤال لا يمت لموضوع المناقشة بصلة إلا أنه رد بلباقة قائلا :

هل بيلاجيوس نفسه لم يرتكب خطيئة ؟

« من أجل إهمالى أنا لست بلا خطيئة »

وكان عليه أن يقول أنه أهمل فى الصلاة إلى الله ليأخذ نعمة كى لا يخطئ ، تلك الصلاة التى صلاها صاحب المزامير ذات يوم قائلاً : « قوّم خطواتى كقولك ، ولا يتسلط علىّ أى أثم » (مز ١١٩ : ١٣٣) ، ولكن مانجده فى رده أنه سيعتمد على يقظته وقواه الذاتية لبلوغ كمال البر وعدمان الخطيئة ، لذلك هو يفشل فى بلوغ البر الحقيقى بالمسيح .

١٥ وكان من الممكن (لبيلاچيوس) أن يقول رداً على السؤال : « هل أنت نفسك بلا خطيئة ؟ » ، فيقول : أننا لا نجد فى الكتاب

الإنجيل يقول أن الكل خاطئ ماعدا المسيح

المقدس كله نصاً يجعل أى انسان بلا خطيئة ما خلا ربنا يسوع المسيح الذى قيل عنه بوضوح « أنه لم يعرف خطيئة » (٢ كو ٥ : ٢١) وأيضاً « مجرب فى كل شئ مثلنا بلا خطيئة » (عب ٤ : ١٥) لأنه تجسد فى شبه جسد الخطيئة ، وليس فى جسد خاطئ . فجسد المسيح يتشابه فى جميع النواحى الأخرى مع جسد الخطيئة ماخلا الخطيئة وحدها .

وأننا من جهتنا لاننكر أن هناك بعض آيات من الإنجيل كُتبت لغرض تعليمى معين مثل : « أنت بلا عذر أيها الإنسان » (رو ٢ : ١) وأيضا

تفسير « كل من ولد من الله لايخطئ »

« كل من هو مولود من الله لايفعل خطيئة لأن زرعه يثبت فيه » (١ يو ٣ : ٩) فى حين أن الرسول يوحنا وفى نفس الرسالة يقول : « إن قلنا أنه ليس لنا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا » (١ يو ١ : ٨)

أما تفسيرى عن « لا يستطيع أن يخطئ » أنه يقصد « لايليق به أن يفعل خطيئة » **فمن الحماقة الاعتقاد أن ارتكاب الخطايا والآثام هو عمل واجب ومحتم ، لأن الخطيئة خاطئة جدا . ولا يوجد سبب نتعفف به عن ارتكاب الذنوب غير كوننا قد صرنا أبناء الله بنعمة ربنا يسوع المسيح .**

١٦ أما عندما يواجه (بيلاچيوس) بالآيات الصريحة التي تبين أنه ليس أحد باراً ليس ولا واحد (أنظر فصل ٨) يتحايل فى تفسيرها محاولاً أن يُخضع معانيها لتوافق آرائه الخاصة . فمثلاً عندما قيلت له الآية التى يقول فيها معلمنا يعقوب « وأما اللسان فلا يستطيع أحد

من الناس أن يذلله » (يع ٣ : ٨) فسرها على كونها مكتوبة بلهجة التأنيب وكأن الرسول يقول : أنت أيها الإنسان الذى أستطعت أن تستأنس الوحوش ، هل لا تستطيع أن تذلل لسانك ؟ .

بلاچيوس يُحرف معنى الآيات

وقطعا لم يكن الرسول يقصد هذا المعنى ، ولا يبدو لى إن ماقاله (بيلاچيوس) هو تفسير بل تحريف (بإضافة علامة إستفهام آخر الآية) لأن الرسول ببساطة يستمر قائلاً : « هو (أى اللسان) شر لا يُضبط مملوء سماً مميتاً » (يع ٣ : ٨) فهو يقصد أن هذا العضو يفوق فى تأثير سمومه على سموم الوحوش والزحافات ، لأن الوحوش قد تقتل الأجساد أما اللسان فإنه يقتل النفس « الفم الكاذب يقتل النفس » (حك ١١:١)

كيف ينضبط لسان الإنسان

لم يقصد الرسول بولس أن ضبط اللسان عملية أسهل من استئناس الوحوش والزحافات ، ولكن قصد أن يبين لنا عظم الشرور والأذية التى فى لسان الانسان ، وأنه من أجل عظم هذا الشر لا يستطيع أحد من الناس أن يذلله . ولا يترتب على هذا بالطبع أن يُترك الحبل على الغارب بالنسبة للسان مهملين ضبطه عن الشر والأذية ، ولكن لكى نتوجه بعجزنا المطلق إلى النعمة الإلهية القادرة أن تضبط هذا اللسان . لأن الرسول يعقوب لم يقل بأنه « ليس ثمة مايذلل اللسان » بل قال : « لايستطيع أحد من الناس » وهكذا ، عندما ينضبط لسان أحد من البشر ويتذل ، لا ينسب هذا إلى نفسه بل إلى معونة الله ومراحم نعمته .

فالواجب على كل نفس إذن أن تجاهد فى ضبط اللسان ، وأثناء الجهاد تصلى طلباً للمعونة الإلهية . لانه فى تلك الحالة ، اللسان هو الذى يتوسل إلى الله من أجل استئناس اللسان ! .

لقد أعلم الرب يسوع تلاميذه ، كيف يُستأنس اللسان حينما قال : « لستم أنتم المتكلمين ، بل روح أبيكم هو الذى يتكلم فيكم » (متى ١٠ : ٢٠) فدور الوصية هو أن تواجهنا بضعفنا وعجزنا حتى ونحن نجاهد بكل جدية مركنين على قوانا البشرية فقط نفشل ، وحينما نفشل تماما نصلى طالبين العون الإلهى ، فنجد أننا نفذنا الوصية بكل سهولة بالنعمة الإلهية .

١٧ ولهذا ، بعدما وصف الرسول شر اللسان بصورة صارخة يقول فى سياق أمور أخرى : « لا يصح يا أخوتى أن تكون هذه الأمور هكذا » (يع ٣ : ١٠) . ثم يواصل بإسداء النصيحة عن كيفية الحصول على هذه الأمور التى من بينها ضبط اللسان فيقول : « من هو حكيم وعالم بينكم ، فلير أعماله بالتصرف الحسن من وداعة الحكمة .ولكن أن كان لكم غيرة مرة وتحزب فى قلوبكم فلا تفتخروا وتكذبوا على الحق . ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هى أرضية نفسانية شيطانية . لأنه حيث الغيرة المرة والتحزب هناك التشويش وكل امر ردئ . وأما الحكمة التى من فوق فهى أولا طاهرة ثم مسالمة ، مترفقة مذعنة مملوءة رحمة واثماراً صالحة عديمة الريب والرياء وثمر البر يزرع فى السلام من الذين يفعلون السلام » (يع ٣ : ١٣ - ١٧)

الحكمة البشرية والحكمة النازلة من فوق

أنها الحكمة النازلة من فوق هى التى تجعل اللسان مستأنساً ، وليست الحكمة النابعة من أى قلب بشرى .

نعمة الله هى مصدر حكمة الإنسان

هل يجرؤ أحد بعد هذه الأيات الواضحة أن يجعل الحكمة النازلة من فوق هى فى قدرة الانسان وطبيعته

وإرادته ، وليست من نعمة الله ؟ أما لو أخذ البعض غرور العجرفة قائلين أن الحكمة هى فى مقدور الانسان نفسه ، فليقولوا لنا لماذا نطلبها من الله أبى الأنوار إذن ؟ ، أم هل يخشون أن يلتجئوا إلى الصلاة لئلا تُنتقص حرية إرادتهم ، وقدرات إمكانياتهم الطبيعية ؟ على أية حال ، عليهم أن يراجعوا يعقوب الرسول نفسه الذى ينصحنا : « إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يُعير فسيعطى له . ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة » (يع ١ : ٥ ، ٦)

هذا هو الإيمان الذى تسوقنا إليه الوصايا ، لأن الناموس يُحدد واجبنا ، والإيمان يتممه . Ut Lex imperet et Fides impetert .

أيضاً لماذا قال الرسول يعقوب : « فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ٢) و « لايذم بعضكم بعضاً أيها الأخوة » (يع ٤ : ١١) أليس قصد الرسول هو بيان أن اللسان لا يستطيع أحد أن يذلله ، إلا عن طريق الحكمة النازلة من فوق ؟ .

١٨ آية أخرى توضح استحالة إرضاء الله وتنفيذ وصاياه بحكمتنا البشرية ، أو كما يطلق عليها الرسول بولس « حكمة الجسد » قائلاً : « فإن حكمة الجسد هى عداوة ضد الله ، لأنها غير خاضعة لناموس الله لأنها أيضاً لا تستطيع لأن الذين هم فى الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله » (رو ٨ : ٧ ، ٨) فهو هنا يذكر حكمة الجسد وليست الحكمة النازلة من فوق ونلاحظ هنا أيضاً أن المقصود بعبارة « الذين هم فى الجسد » أى الذين يعيشون بحسب الجسد وليس الذين يقمعون الجسد ، وقد

الحكمة الجسدية ضد ناموس الله

هدأوا شهواته . على أية حال ، هذه نقطة خارج موضوع المناقشة . ولكن ما أريد أن أسمعه من (بيلاچيوس) إن أمكن ، أليست المحبة

المحبة التى فى كمال الناموس ، من الروح القدس

هى تكميل الناموس ؟ (رو ١٣ : ١٠) سواءً الذين أكملوا هذه المحبة يعيشون بحسب الروح وليسوا فى الجسد ، أو حتى يعيشون بالروح بواسطة النعمة الإلهية ، أو حتى كما يقول هو ، عندهم الكفاءة الذاتية من قدرات طبيعية وإرادة قوية .. الخ ، أليس تكميل الناموس لا ينحصر فى شئ غير المحبة » (رو ١٣ : ١٠) ؟ . ولكن الله يقول **أن هذه المحبة ليست من شئ مافى أنفسنا . لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا** » (رو ٥ : ٥)

١٩ بدلا من طلب الحكمة النازلة من فوق ، يذهب (بيلاچيوس) إلى إعطاء علاجات لخطايا الجهل ويقول

يظن بيلاجيوس أن علاج الجهل من قدرة الإنسان

« فليدقق الانسان جدا كى يتجنب الجهل . لأن الجهل يستحق كل ملامة . فالانسان يكون جاهلاً بسبب إهماله وتوانيه لأنه إن هو فقط مارس اليقظة ، لعرف بالتأكيد » ! .

وهكذا نرى (بيلاچيوس) يميل للتفنيد والتحليل فى كل الأشياء ، عن أن يقف ويصلى إلى الله قائلاً : « فهمنى فاتعلم وصايك » (مز ١١٩ : ٧٣) .

معنى تقديم ذبائح عن السهو والخطأ

طبعا هو أمر سهل جداً أن تعرف أنواع الذبائح التى بها يُكفّر الانسان التقى عن خطايا السهو والجهل حتى منذ العهد القديم .. فمعنى تقديم ذبائح للسهو والجهل هو أن

الانسان يريد أن يفهم ويعمل بكل الناموس ومن كل قلبه ، ولكن بدون قصد يسهو ويكسر الناموس ، أو يكون غير فاهم ويجهل ماينبغى عمله . أما يدل هذا أننا فى إحتياج مستمر أن نسأل حكمة من الله « الذى يعطى الجميع بسخاء » (يع ١ : ٥) ؟ .

فالحكمة والاستنارة واليقظة والمعرفة ، هذه الأمور العظيمة هى لجميع الناس الذين يسألونها من الله بابتهال وتوسل .

٢٠ وحينما سُئل (بيلاجيوس) عن ماذا يصلى الانسان إذن ؟ حصر عمل الصلاة فى طلب غفران الخطايا التى أرتكبت وفقط ، فقد أقر :

بيلاجيوس يحصر عمل الصلاة فى طلب غفران الخطايا فقط

« الخطايا التى أرتكبت يتحتم التكفير عنها بكل الطرق ، ونتوسل إلى الرب من أجلها » .

طبعاً لهدف الحصول على الغفران ، وبحسب زعمه : « لأن ماقد عُمل لا حيلة لنا فيه أن نُصلحه ، لا بقدراتنا الطبيعية ولا بإرادتنا البشرية » .

إنها القدرات الطبيعية والإرادة الانسانية ، تلك الأمور التى يتحدث عنها كثيرا ، ففى حالة إخفاقها فقط ، يصلى ، طالباً العفو والغفران ،

هل طلب نعمة لعدم السقوط صلاة لا لزوم لها ؟

ولا يُسمح للانسان (بحسب رأيه) أن يصلى كى لا يخطئ ، فهذا لم يرد فى الكتب المقدسة ! أنه لم يصرح برأى كهذا جهرا ، فقد أطبق الصمت عليه بإذائه فى حين أن الصلاة الربانية تُعلمنا بأننا كما نصلى لاجل أن تُغفر لنا ذنوبنا ، نصلى أيضاً أن لا يدعنا الله ندخل فى تجربة

. الطلبة الأولى توسل عن سقطات الماضى أن تُفتدى ، والثانية لاجل تلافيها فى المستقبل .

إن إرادة الانسان ليست كافية وحدها كى يتجنب الانسان السقوط فى الخطايا ، بل ان تلك الإرادة نفسها تحتاج إلى سند ومعونة من النعمة الإلهية وهذا ما يدفعنا إلى الصلاة . فالصلاة المرفوعة لله لبلوغ هذه النتيجة ليست زائدة عن الحاجة ولا هى مضايقة لله بحجة انك تطلب منه عمل الشئ المفروض عليك أنت عمله ، وتصلى ليقوم هو بما يقع فى نطاق قدراتك .

٢١ ترون الآن (مايت لموضوعنا بأوثق صلة) كيف يحاول (بيلاجيوس) أن يصور حالة الطبيعة البشرية كما لو كانت صحيحة بلا فساد ولا خطيئة ، وكيف يبذل كل جهده محاولا أن يُثبت عكس ماهو واضح كالشمس فى الكتب الإلهية . مستخدما « حكمة كلام » (١ كو ١ : ١٧) تلك التى تجعل صليب المسيح باطلا . ولكن الأمر المؤكد ، أن المسيح لم يُصلب باطلا على الإطلاق ، مهما استمرت مثل هذه المهاترات .

نحن نرجو من كل قلوبنا أن تفتقده النعمة الإلهية ، حتى يندم ويأسف أنه ذات مرة قال :

لفو كلام لجعل صليب المسيح باطلا

« لا ينبغى ان نأخذ بالقول بأن طبيعتنا البشرية قد فسدت أو ضعفت وتغيرت بالخطيئة بل علينا إمعان النظر فنسأل أولا : ماهى الخطيئة ، هل هى مادة ما ؟ أم هى مجرد اسم بلا كيان ؟ إن كلمة خطيئة لا تُعبر عن كيان ما ، ولا عن شئ ما ، ولا عن جسم ما ، بل هى مجرد فعل يتسم بالخطأ . فما دام الأمر كذلك على ما أعتقد ، فكيف يمكن لشئ يفتقر كلية إلى المادة وإلى الكيان أن يُفسد أو يُضعف أو يُغيّر من طبيعة الانسان ؟ » .

الخطيئة أفسدت الطبيعة البشرية فاحتاجت إلى الشفاء

أنظروا كيف أنه يضرب عرض الحائط بقوة الشفاء الهائلة التى فى الأسفار المقدسة ، والتى هى قمة العمل الإلهى فى كلمة إنجيله ! حيث أنه مكتوب فى سفر المزامير هذه الصلاة : « أنا قلت يارب أرحمنى ، أشف نفسى لأنى قد أخطأت إليك » (مز ٤١ : ٤) والآن ، كيف لنفس أن تشفى إن لم تكن قد أُعتلت أو ضعفت أو جُرحت أو فسدت ؟ ولكن ما الذى اصاب النفس بهذه الأذية ، حيث نسمعها تطلب الشفاء ؟ فلنستمع إلى المرنم وهو يعترف بالحق : « أشف نفسى لأنى قد أخطأت إليك » (مز ٤١ : ٤) ولا حاجة إلى نقاش فى هذا .

ولكن ، لندعه يسأل هو بطريقته الخاصة ويتفحص ويمعن النظر كما يريد فيقول : « أنت يامن تصرخ : أشف نفسى لانى قد أخطأت إليك ، أرجوك ، أخبرنى ، ماهى الخطيئة ؟ هل هى مادة ما ، أم هى اسم مطلق بلا كيان ، فمن حيث أنها تعبير بلا مادة وبلا كيان ولا وجود ، بل هى مجرد فعل عمل يتسم بالخطأ ؟ .

حينئذ يجيبه الآخر : نعم أن الخطيئة ليست مادة ولا كيان ، واسمها ينطوى على مجرد فعل عمل يتسم بالخطأ ... ولكن (بيلاجبوس) يواصل كلامه : « فلماذا تصرخ إذن ، يارب أشف نفسى لأنى قد أخطأت إليك ، كيف يمكن لخطيئة حال كونها ليست مادة ولا كياناً ولا وجود جسمى أن تُفسد نفسك وتجعلها مريضة ؟ .

حينئذ يطرده الآخر عنه وهو يحس بالآلام الجراح الملتهبة كى لا يشغله عن الصلاة قائلا له باختصار : « أذهب عنى أرجوك ، وحاول أن تناقش موضوعك مع ذاك الذى قال : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ، لم آت لأدعو أبرار بل خطاة » (مت ٩ : ١٢ ، ١٣) أننى فى أشد الإحتياج إلى المسيح الطبيب الحقيقى ، ولعلك تكون أنت أكثر إحتياجاً ، لأنك تظن أنك بار وبلا خطيئة .

٢٢ والآن ألا تلاحظون معى خطورة ما يتجه إليه الخصم ؟ أنه يريد أن يدمر كلام الانجيل ويجعله باطلا ! لأنه مكتوب عن المسيح فى الأسفار المقدسة هكذا : « وتدعون اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم » (متى ١ : ٢١) فكيف توجد عملية خلاص وأنقاذ ان لم يكن هناك أزمة أو مشكلة أو كارثة ؟ أنهم يثرثرون : بأن الخطايا التى

ينبغى أن يسبق كل جدل الايمان بحقائق الانجيل

أتى يسوع ليخلص شعبه منها (على حد قول الإنجيل) ليست مادة ولا كياناً وبالتالى فهى غير قادرة على الإفساد !! .

آه يا اخى ، كم هو رائع أن تتذكر انك مسيحى ، شاعراً بالأرتواء كله ، والشبع ملئه ، بالإيمان بكل ماجاء فى الإنجيل .

وإن كنت تُصر على المناقشة والجدل ، فلا ضير فى هذا ، بل قد يكون هناك فائدة ، شريطة أن يسبق جدلنا إيمان راسخ بما جاء فى الإنجيل .

وبناءً عليه ، لا يمكننا افتراض أن الطبيعة البشرية لا تفسد بالخطيئة ، بل أن الخطيئة قادرة فعلا على إفساد الطبيعة البشرية . واعتقادنا بهذا يرتكن على ما نؤمن به فى الأسفار المقدسة ، أن تلك الطبيعة قد أفسدتها الخطيئة فعلا .

وليكن بحثنا الآن ، كيف أمكن لهذا الفساد أن يحدث بالخطيئة ، علما بأن الخطيئة ليست مادة ولا كياناً ؟ فلنوضح المسألة بمثل آخر قد يقرب المعنى : هل العزوف عن أكل الطعام مادة وكيان ؟ طبعا لا ، لأن الطعام فى حد ذاته هو المادة والكيان ، فعدم الأكل إذن ليس مادة ما ، ولكن استمرار العزوف عن الطعام بصورة حادة يُحدث سوء التغذية ، وذبولاً فى البدن وتدهوراً فى الصحة ، ووهناً فى القوة ، والضعف الشديد ثم الأعياء فالإنهيار ، هذا لو استطاع الإنسان أن يستمر على قيد الحياة . وحتى لو حاول بعد هذا استعادة صحته باستعمال الأطعمة التى عزف عن تناولها فقد يتأذى وتزداد حالته سوءاً لأن جهازه الهضمى قد اعترته الأمراض والفساد .

ضرر العزوف عن الطعام يشبه ضرر الإبتعاد عن الله

هكذا بنفس الطريقة : حقا أن الخطيئة ليست كياناً ولا هى وجود ، ولكن الله هو الكيان الواجب الوجود ، وحينما عزف الانسان عن الله بالعصيان زمانا طويلاً ، دب الفساد فى طبعه البشرى ،حتى أنه لم يعد قادراً أن يبتهج بإلهه من شدة الضعف . وهذا ما عبر عنه المرنم إذ يقول : « ملفوح كالعشب ، ويابس قلبى حتى سهوت عن أكل خبزى » (مز ١٠٢ : ٤)

٢٣ فانظروا إذن كيف يغرر ويراوغ محاولاً أن يبرهن مايعارض الحق الذى فى كتاب الله المقدس ، الذى يذكر عن الرب يسوع انه سمىَ يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم (متى ١١ : ٢١) أما (بيلاجيوس) فيقاوم بأن ليس فى طبيعة البشر خطايا . المسيح نفسه بملء شفقته وحنانه يقول : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبرار بل خطاة إلى التوبة (متى ٩ : ١٢) (وبيلاجيوس) يعارض بأن الطبيعة البشرية مع قوة الإرادة قادرة على بلوغ كمال البر بدون المسيح ! ثم الرسول بولس الذى تفهم رسالة المسيح يسوع جيدا يقول : « صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن يسوع المسيح جاء إلى العالم ليخلص الخطاة » (١ تى ١ : ١٥) ، ولكن بيلاجيوس هذا يحاول أن يدمر « الكلمة الصادقة المستحقة كل قبول بمنطق غريب فيقول : « لا ينبغى أن نقول أن الخطايا هى سبب الفساد ، لأننا بهذا كأننا نقول أن عقوبة الخطيئة هى حتمية أرتكاب خطايا أكثر » .

كيف يعارض بيلاجيوس جوهر الإنجيل

بيلاجيوس يقلل من أهمية عماد الأطفال

وليس هذا فقط ، بل والأسوأ من هذا أن بيلاجيوس يريد أن يحرم الأطفال من نعمة

المعمودية حتى يكبروا ويختاروا بحرية إرادتهم ، وبهذا يحرمهم من طبيبهم العظيم الشافى لطبيعتهم الفاسدة : يسوع ، إنه يقول مستنكرا : « لماذا يحتاجون ؟ » .

هل هناك أب لا يحمل طفله الكسيح إلى الطبيب قائلا : لنترك موضوع الكساح هذا عندما يكبر الطفل ، فيختار هو بين أن يبقى كسيحا أو أن يشفى ! .

ويدافع بيلاجيوس عن رأيه ، بأن الأطفال يولدون بلا فساد ، لأن آدم نفسه عاش بارا بعد سقطته فى حين أن الكنيسة المقدسة تُسلمنا أن آدم لم يخلص إلا برحمة المسيح (أنظر ثاؤتوكيه الأثنين -المترجم) ويواصل بيلاجيوس دفاعه « بأن نسل آدم اثبتوا أنهم أقوى من آدم نفسه ، لأنهم حفظوا وصايا عديدة لم تكن على آدم ، فى حين أن آدم لم يحفظ وصية واحدة » ! ، فهم ليسوا ضعفاء وبالتالى ليسوا فى حاجة إلى المسيح الشافى ! .

ولقد أغفل بيلاجيوس الواقع العملى ، بأن نسل آدم ليس هو فقط غير قادر على تنفيذ وصايا الله ولكن أيضا غير قادر حتى على رضاعة اللبن وحده وهو جائع ، مالم تريه أمه ، وهذا عكس المخلوقات الأخرى التى بمجرد ولادتها تعرف أن ترضع لبن أمهاتهم . هؤلاء الأطفال يرفعون صوتهم بالبكاء ، وصوتهم هو الصوت المعقول ، فتسرع الكنيسة الأم بضمهم إلى حضنها معطية إياهم النعمة التى بها يُخلص يسوع شعبه من خطاياهم .. ولكن هؤلاء الناس يقاومون مثل هذه النعمة ، كما لو كانت لديهم النظرة الأصوب نحو المخلوقات ، عن نظرة ذاك الذى جبل المخلوقات .

٢٤ ولنعد إلى ما أثاره (بيلاجيوس) من معارضة حول عقوبة الخطيئة ، فهو لا يوافق أن عقوبة الخطيئة هى زيادة فساد الطبيعة البشرية بحيث ترتكب المزيد من الخطايا . فهو يقول :

الإنسان الخاطئ قد يتورط فى خطايا أكثر كعقاب له

« إن جوهر الأمر بالنسبة للخطيئة هو معاقبتها بعقوبة رادعة ، فكيف يكون هذا أن قلنا أن الخاطئ يفسد جدا حتى أنه يرتكب مزيداً من الخطايا ؟ » .

ولكن (بيلاجيوس) لا يأخذ فى الأعتبار أن كل من تعدى الناموس يفارقه نور الحق طبقا لعدل الله . وعندما يفارقه نور الحق يصبح فى ظلام العمى ، فيزداد تعثراً وسقوطاً ، ويرتبك فى طريقه ويتخبل فى سلوكياته ، ويصبح غير قادر حتى على سماع صوت الناموس الذى يحثه على النهوض متوسلاً إلى نعمة الله المخلصة .

وصف الرسول بولس لهذه الحقيقة

والرسول بولس يصف هذه الحالة بالضبط قائلاً : « لأنهم لما عرفوا الله ، لم يمجدوه أو يشكروه كإله ، بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبى » . (رو ١ : ٢١) هذا الإظلام إذن هو المعاقبة والجزاء الذى بواسطته هو نفسه - أى ظلمة انسحاب نور الحكمة - سقطوا فى خطايا أشنع : « وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صارو جهلاء » (رو ١ : ٢٢) ويالها من عقوبة مأساوية لمن يدرك مدى فداحتها ، ولقد وصف الرسول مدى سفالة الدرك الذى هبطوا إليه إذ يقول : « وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات » (رو ١ : ٢٣) ألم يفعلوا كل هذا عقابا على خطيئتهم

التى جعلت قلبهم الغبى يظلم . وليس هذا فقط بل انظروا ماقاله بعد هذا : « لذلك اسلمهم الله أيضاً فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة » (رو ١ : ٢٤) لقد كانت النجاسة شهوات قلوبهم ، ولقد تركتهم دينونة الله إليها ليتعذبوا بقساوة بما يشتهون « لإهانة أجسادهم بين ذواتهم » أليست عقوبة الأثم إذن هى أرتكاب مزيد من الأثم ؟ « لأنهم استبدلوا حق الله بالكذب ، وأتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذى هو مبارك إلى الأبد آمين » ويواصل الرسول وصفه « لذلك أسلمهم الله أيضاً إلى أهواء الهوان . لأن أناثهم استبدلن الأستعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة . وكذلك الذكور أيضاً تاركين استعمال الأنثى الطبيعى اشتعلوا بشهواتهم بعضهم لبعض فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور ونائلين فى أنفسهم جزاء ضلالهم المحق » (رو ١ : ٢٦ ، ٢٧) ولكى يبين أيضاً أن هذه الأمور وهى خطايا فى حد ذاتها هى أيضاً عقوبة عن خطايا ، أضاف : « ونائلين فى أنفسهم جزاء ضلالهم المحق » (رو ١ : ٢٧) نرى أنه غالباً ما تُعاقب الخطيئة ، بجلب مزيد من الخطايا كتكاثر وإنسال طبيعى لها ، فالرسول يقول أيضاً : « وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى معرفتهم ، اسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعوا مالا يليق ، مملوئين من كل أثم وزنى وشر وطمع وخبث ، مشحونين حسدا وقتلا وخصاما ومكرا وسوءاً ، نمامين ، مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شرورا غير طائعين للوالدين بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة » (رو ١ : ٢٨ - ٣١)

أمام أقوال الله هذه ، فلنترك خصمنا (بيلاجيوس) يهذى بقوله : « عقوبة الخطيئة لا ينبغى أن تجعل الخاطئ يرتكب مزيدا من الخطايا » ! .

٢٥ ولكن قد يكون رده ، بأن الله لا يُجبر الناس على فعل هذه الآثام ، ولكنه فقط يتخلى عن المستحقين الترك . فلو أن (بيلاجيوس) قال بهذا لوافقته لأن هذا القول هو عين الحق .

الإنجيل يعتبر أن الخاطئ ميت

وأنا من جهتى ذكرت منذ قليل : أن الذين فارقهم نور البر ورفضوا ، يتخبطون فى ظلمة ، فلا يمكن أن نتوقع منهم غير أعمال الظلمة ، حتى يأتى عليهم وقت يستجيبون فيه إلى النداء القائل : « استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضئ لك المسيح » (اف ٥ : ١٤) . ترون أن إنجيل الحق يصفهم بأنهم موتى ومن هنا كانت الآية : « دع الموتى يدفنون موتاهم » (لو ٩ : ٦٠) .

أما (بيلاجيوس) فيطرح كلام الإنجيل وراء ظهره معلنا بأنه لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا أو حتى تلفوا أو فسدوا بالخطيئة ، على خلفية ماقد اكتشفه بأن الخطيئة ليست مادة ! .

إرادة الإنسان غير قادرة أن تقيمه من موت الخطية

لم يُعلم أحد (بيلاجيوس) بأن الإنسان قد خُلق وفى استطاعته أن يذهب من حالة البر إلى حالة الخطيئة ، ولكنه لا يستطيع (بمفرده) أن يعود من حالة الخطيئة إلى حالة البر ، فالإرادة الحرة تلك التى أفسد الإنسان بها نفسه ، كانت بالقدر الكافى لذهابه إلى الخطيئة ، أما بالنسبة لعودته إلى حالة البر . فإنه محتاج إلى طبيب (أى يسوع) لأنه أضحى معتلاً ، ومحتاجاً إلى من يحييه (أى المسيح) لأنه قد مات .

لم يقل (بيلاجيوس) كلمة واحدة عن نعمة المسيح الشافية المحيية ، بل هو يتحدث باستمرار كما لو كانت الطبيعة البشرية قادرة على شفاء نفسها بإرادتها الذاتية بدون الرب يسوع . فى حين أن إرادتها تلك التى يتشدق بها لم يكن بوسعها إلا أن تُهلك .

الخطيئة هى موت النفس

نحن لم نخبره أن موت الجسد هو بتأثير الخطيئة لأن الموت هو عقوبة الخطيئة . لأن لا أحد يخطئ بتوقيع الموت بإرادته على جسده لأنه بإرادته لا يستطيع أن يعيد نفسه من الموت ، ولكن موت النفس هو الذى يوصل للخطيئة . فحينما تفرط النفس فى حياتها ، وتترك إلهها ، فلا يمكنها آنذاك إلا أن تعمل أعمال الموت ، وتظل على هذا الحال إلى أن تدركها نعمة المسيح فتنتعش وتحيا .

الأعمال النسكية مفيدة إن مورست بالنعمة الإلهية

حاشا لنا أن نقول أن الجوع والعطش والآلام الجسدية الأخرى ، يتولد عنها خطايا بالضرورة لان مثل هذه الإماتات النسكية تبعث مجداً عظيماً بالصبر على الجوع والعطش والألم ، وتجعل حياة البر تتلألأ ببهاء أعظم . شريطة أن تمارس هذه النسكيات بدعم من النعمة الإلهية ، وسند من الروح القدس وتعزية من الرحمة الإلهية . بحيث لا يكون هناك افتخار بالذات ، أو زهو بإرادة متغطرسة بل تستمد مثابرتها وجلدها فى أعتراف متواضع لأنها تعلمت أن تقول فى صلاتها لله : « لأنك أنت رجائى ياسيدى الرب ، خيرى ولا شئ غيرك ، متكلى منذ صبای » (مز ٧١ : ٥) .

النعمة مصدرها وعملها

أننى فى حيرة من أمر ذلك الرجل (بيلاجيوس) كيف يتغاضى عن ذكر أى شئ عن النعمة والمعونة والرحمة الإلهية التى بدونها لا نقدر أن نعيش ! وحينما يُضطر إلى ذكر عمل النعمة يحاور ويداور جاعلا نعمة المسيح التى بها نتبرر أمام الله هى مجرد الكفاءة الطبيعية لأعمال البر والتى لا يعوزها سوى الإرادة القوية ! .

٢٦ نعمة المسيح تغفر أثم المذنب وتحل سلطان الخطيئة عن الأثيم ، وأيضاً نعمة المسيح تقود الإنسان إلى الإيمان القويم .

أما عن موضوع بقاء موت الجسد رغم كونه من نتائج الخطيئة فهذا قد شرحته على قدر ما استطيع فى المقالات التى أرسلتها للطيب الذكر مارسلينوس (استشهد فى سبتمبر سنة ٤١٣) .

وتعليقاً على قول (بيلاجيوس) : « إن الرب كان قادراً أن يموت بلا خطيئة » ، أقول :

موت المسيح أفاض نعمته علينا

أن تجسد الرب وميلاده لم يكن من نتاج مطلب فى طبيعته الإلهية ، بل كان بحسب اقتدار رحمته وحينما مات على الصليب ، كان هذا بسلطانه وحده وليس عن حتمية فى طبيعته ، لأن هذا الموت كان هو الثمن الذى شاء أن يدفعه لكى يفدينا من الموت .

فعندما اقترب الرب نحو آلامه قال : « رئيس هذا العالم آت وليس له فىَّ شئ » (يو ١٤ : ٣٠) من ثم لم يكن فى الرب يسوع أى خطيئة كى

يسود عليها ، أو كان معرضا أن يهلك بها ، لذلك أضاف قوله : « ولكن لكى يعلم العالم أننى أحب أبى وكما أوصانى الآب هكذا أفعل (أى أنفذ مشيئة الآب بمسرة) قوموا ننطلق (إلى حيث الصلب) من ههنا » (يو ١٤ : ٣١) وكأنه يقول ، أنا ذاهب للموت ليس بسبب حتمية خطيئة فىَّ ، بل اختياريا طاعة للآب .

أما (البيلاجيون) فلقد قدحوا زناد أفكارهم وتوصلوا إلى أن إرادة الإنسان الحرة لم تكن بحاجة إلى فداء ، كى ينتقل الخاطئ من سلطان الظلمة والخطيئة والموت إلى ملكوت المسيح الرب (عب ٢ : ١٤ ، كو ١ : ١٣) ! .

٢٧ ويتمادى (بيلاجيوس) فى معارضته « بأنه معاقبة الخاطئ هى عمل صالح ولا يمكن أن يتسبب عنه أى شر » . حقاً أن كثيرين انصلح حالهم بالعقاب ، ولكن ليست نتيجة العقاب هى خير على طول الخط . فمراحم الله العجيبة قد تستعمل الشرور التى تصيب الإنسان لإصلاح حالة على أى وجه ، وكمثال على هذا قول صاحب المزمور : « حجبت وجهك عنى فصرت قلقا » (مز ٣٠ : ٧) فهل هناك أى صلاح فى احتجاب وجه الله ؟ كلا بلا شك - ولكن نفس هذا القلق كان علاجا ضد الكبرياء الروحى حين قال فى نعمته « لا اتزعزع إلى الدهر » (مز ٣٠ : ٨) فعندما نسب إلى ذاته ما كان قد أخذه كنعمة من الرب « لأنه أى شئ لك لم تأخذه » (٢ كو ٤ : ٧) أضحى من الضرورى أن يرى ويعرف من أين أخذ ، حتى ما يعود يأخذ باتضاع مافقده بالكبرياء وبناءً عليه يقول : « يارب بمسرتك أعطيت جمالى قوة » (مز ٣٠ : ٧) .

٢٨ إن عقل الإنسان المتكبر ، لا يتذوق شيئاً من الأمور الإلهية ، انه يميل بالأكثر أن يبحث فى أخطاء الغير ويجهز أقوى الردود والبراهين منهمكا فى المعارضة وفقط . ولكن الله فى عظمته يتابع ذلك العقل المتكبر ويحاصره لعله يعى ، فيوجه كل اهتمامه إلى التحرر من اخطائه هو ، فيصلى عن نفسه وعن الأخرين بدلا من الجدال والمناقشة معهم .

الصلاة المتضعة بدلا من المجادلة

أننا لم نقل إطلاقا « أن الخطيئة ضرورية فى جلب رأفة الله علينا » ولكنهم تصوروا هذا فى أنفسهم ، لأنه هل من المعقول أن يضع أحد نفسه فى حال بؤس كى يستدر الرأفة ! ترى أى رأفة تلك التى تحتاج إلى من يستدرها ! .

إن الإنسان ، لشدة تعاظم الأثم يستسهل السقوط فى الخطيئة عن أن يتجنبها . ونظراً لعدم وجود علاج فعّال يناسبه ، جعل الله السقوط فى الأثم ، عقوبة عادلة تتناسب مع نوع خطيئته ، حيث يفقد الإنسان الساقط سيطرته على جسده ، وكان من المفروض أن يكون جسده خاضعاً ومطيعاً له ، ولكنه تهاون حينما كان جسده مطيعاً فى البداية وهو يستخدمه فيما للرب ، ولكنه هزأ بجسده وذلك بجره إلى العصيان .

أصل الخطيئة الأصلية

ونحن نولد الآن بجسد العصيان هذا ، حيث يسكن ناموس الخطيئة فى أعضائه ويقاوم ناموس ذهننا ، فلا ينبغى علينا أن نتململ على الله ولا أن نجادل مقاومين الحق الناصع ، بل نطلب ونصلى ملتمسين مراحمه عوضا عن العقوبة .

٢٩ أيضاً يحرص (بيلاجيوس) أن يقلل من شأن النعمة فهو يُعبّر عن ما فى نفسه قائلا : « لقد جعل الله من وظائف نعمته أن تقوم بعمل الغفران فقط عندما يكون هذا ضروريا ، لأن الانسان بعد أن يخطئ محتاج إلى نعمة من هذا النوع ، ولا يحتم الله على الناس أن يخطئوا كى يعطيهم هذه النعمة » لاحظوا أرجوكم كيف أنه يتحاشى القول أن نعمة الله ضرورية لوقاية الانسان من السقوط فى الخطيئة ! ولكنه يضيف « كالطبيب الذى يجب عليه أن يكون جاهزا لتطبيب كل إنسان أصيب بجرح حتى يشفيه ، ولكنه فى نفس الوقت لا يتمنى أن ينجرح أحد » .

بيلاجيوس لايعترف إلا بنعمة الغفران

لو كان هذا التشبيه يناسب الموضوع الذى نتناوله ، فستكون الطبيعة البشريةعلى حد قوله غير قابلة أن تجرحها الخطيئة ، لأن الخطيئة (كما قال) ليست مادة ! ولكن على أية حال ، فحتى لو أخذنا بالتشبيه الذى استخدمه .

إنسان أقعده جرح غائر ، حتى أنه لا يمشى إلا وهو يعرج ، فالطبيب يعالج جرحه الغائر حتى يُشفى ، وأيضاً لكى يمشى بعد ذلك بطريقة عادية مشية مستقيمة وقوية . هكذا طبيبنا السماوى ، يشفى جراحاتنا حتى لا يكون لها وجود فيما بعد ، وأيضاً لكى ما نستطيع أن نسلك باستقامة واعتدال فى المستقبل .

وهكذا نرى أننا لا نستطيع أن نخرج من حالة العرج والكساح والجراح المتقيحة إلى حالة الشفاء التام والعودة إلى المشى الطبيعى إلا بدوام تلقى المعونة والعناية من الطبيب السماوى . لأن الطبيب

لايكتفى بأن يجعل الجراح تلتئم ، بل يعطى للمريض عناصر ضرورية لكمال صحة جسده بوجه عام وطريقة تغذيته من الأطعمة كى تدوم حالة الشفاء التى وصل إليها . إن عناية الله الصالحة تمد كل من يعيش فى الجسد بكل العناصر والوسائل التى يستخدمها الطبيب فى عملية الشفاء لأن رجل الطب لا يستخدم شيئاً خلقه هو نفسه بل يستخدم المصادر التى خلقها الله خالق كل الأشياء التى يحتاجها الجميع بما فيهم المرضى .

الله يتعهد الإنسان بنعمته حتى يكمل فى البر إلى الأبد

عندمايداوى الله مرضى الخطيئة ، ويقيمهم من الموت ، ويبررهم من آثامهم من خلال « الوسيط الوحيد بين الله والناس ، الإنسان يسوع المسيح » فإنه يأتى بهم إلى كمال الصحة أعنى كمال حياة البر . هنا الله يتعهد الانسان بنعمته ولا يتركه ، حتى لو تركه الإنسان ، يظل يتعهده حتى يقضى حياته فى بر دائم وفى ظل رحمة مؤبدة .

كعين الجسد ، مهما كانت سليمة تماماً ، فإنها تكون غير قادرة على الإبصار مالم تساعدها أشعة النور الخارجى . هكذا الإنسان ، فحتى لو تبرر تماماً فهو غير قادر أن يقود حياة مقدسة إن لم ينل المعونة الإلهية من نور البر الأبدى ، وأختصار هذا كله : أن شفاء الله لنا ، ليس فقط فى كونه يمحو خطايانا التى أرتكبناها ، ولكن بالأكثر كى يجعلنا نتجنب السقوط فى الخطيئة أيضاً .

٣٠ بعد هذا يستنتج بيلاجيوس رأيا نسبة لنا مع أننا لا نقول به ، ويدمغه بأنه قمة السخف وذروة الحماقة وهو : « أنه يتحتم على الإنسان

بيلاجيوس يفهمنا بطريقة خاطئة

أن يكون غير قادر أن يحيا بلا خطيئة لكى يتخلص من كل كبرياء وافتخار ! » ، وهو حر بلا شك فى أن يستنتج ويفند ويُقلب ويعرض ما يريد حتى ولو استخدم الحدة وعدم اللياقة فى تناوله للموضوع ولكننا لا يمكننا أبداً أن نقول بأن الله يستعمل خطيئة لكى يزيل خطيئة أخرى من الانسان حيث أن الكبرياء فى حد ذاته هو خطيئة ولكننا نقصد مرارة الأدوية التى قد يستخدمها الطبيب لمداوة المرض ، أو آلم العملية الجراحية التى تُذهب بألم المرض . فهل هى ذروة السخف حين يستخدم الطبيب لسعات الأدوية المرة لشفاء المريض أو يجرى عملية جراحية مؤلمة كى يُذهب ألم المرض عنه ؟ .

٣١ أيضا يقول (بيلاجيوس) « ولكن الله قادر أن يشفى كل شئ شفاءً تاماً » ، ونحن نقول : طبعا ، فإن غرض المداواة هو الشفاء الشامل التام .. ولكن الطبيب يداوى بحسب نظرته الخاصة ويقرر الخطوات اللازمة للتطبيب من ذاته ، وليس المريض هو الذى يحدد خطوات المداواة .

فبالرغم من رغبة الطبيب السماوى يسوع أن يذود رسوله بولس بالعافية والقوة ، إلا أنه يترك تلك الشوكة الغامضة من جسده قائلاً له : « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » (٢كو ١٢:٧ ، ٨) مع أن الرسول كان يتوسل متضرعاً أن تُنزع منه إلا أن المسيح أخبره أن تلك الشوكة موجودة « لئلا يرتفع من فرط الإعلانات » (٢ كو ١٢ : ٩) . فالكبرياء يختلف عن كل الخطايا الأخرى فى كونه يصيب الكاملين الأصحاء فى الفضائل ،

ملاج الله لكبرياء الإنسان

حين ينسبون الفضل لذواتهم وليس لنعمة الله . فعندما يصيبهم الزهو والافتخار بأنفسهم يتعرضون للهلاك الأبدى فيهلكون بصورة أصعب مما لو كانوا لم يفعلوا فضائل بالمرة . يوصى الإنجيل أمثال هؤلاء قائلاً : « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة ، لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا مسرته » (فى ٢ : ١٢ ، ١٣) .

لماذا إذن بخوف ورعدة وليس بوثوق وإطمئنان ، من حيث أن الله هو العامل ؟ السبب هو أن تلك الفضائل سرعان ما تُسرق وتضيع من أنفسنا البشرية حين نعتبرها ببساطة أنها من إنجازنا الخاص ، وهذا بسبب إرادتنا (التى بدونها لا نستطيع أن نفعل شيئا صالحا) .

لذلك فإن كل من يقول فى نعيمه : « أنا لا أتزعزع إلى الدهر » (مز ٣٠ : ٦) فإن الله الذى بمسرته الصالحة كان قد أعطى لجماله قوة ، سيصرف وجهه عنه فيكون مرتاعا . فيتحول الافتخار والزهو إلى اضطراب . لأنه بالأحزان الفعلية يُبتلع الكبرياء وهكذا يتم العلاج .

٣٢ لذلك فنحن لانقول لانسان : « من الضرورى أن تخطئ لكى ' تخطئ » ! ولكننا نقول له : « أن الله قد يتركك لنفسك نتيجة كبريائك حتى تعرف أنك أنت لست لنفسك بل لله (١ كو ٦ : ١٩) « وتتعلم أيضاً أن لا تتكبر » .

بيلاجيوس على خلاف مع بولس الرسول

فليقل لنا (بيلاجيوس) إذن عن تلك الشوكة العجيبة التى كانت فى حياة بولس ، هل سيقول أنها لم تكن فى الواقع الحقيقى ، ولكن الرسول بنفسه هو الذى شهد بها ، أم هل سينقد القول كله ويسحب الثقة من الرسول ؟ لأنه من المعروف أن بدء وخز الخطيئة هو من

أبليس المصدر الأول لكل الخطايا . وليفسر لنا (بيلاجيوس) أيضاً كيف « يُسلم البعض للشيطان كى يتعلموا أن لا يجدفوا » ؟ (١ تى ١ : ٢٠) فكيف يتم حدوث هذا أن يُمنع عمل الشيطان بواسطة عمل الشيطان ؟ على أية حال ، فليفحص الرجل فى هذه الأسئلة ومثلها التى تبدو فى ظاهرها متناقضة ، ولكنها مع التفحص والأمتثال للإرادة الإلهية تكون سلسلة منسجمة فى توافق عجيب . أيضاً يتسائل (بيلاجيوس) باستهجان طالباً رداً على تشبيه يسوقه فيقول : « وماذا أقول أيضاً ، فإن كنا نؤمن ان الخطايا تشفى والخطايا ، فعلينا أن نؤمن أيضاً أن نيراناً تطفئ سعير النيران ! » .

هل النار تطفئ النار ؟

وماذا لو لم يقدر إنسان أن يطفئ نيرانا بنيران ؟ ولكن بالنسبة لأوجاع الإنسان ، فقد بينت من قبل أنه يمكن شفاؤها بأوجاع . فمن المعروف أن سموما قد تطرد سموما من الجسم . بل أن حرارة الحمى قد تتلطف أحيانا بواسطة مدفئات طبية . فلو عرف (بيلاجيوس) هذا سيسمح أيضاً بأن نيرانا تطفئ نيرانا .

٣٣ هنا يحاول (بيلاجيوس) أن يفجر رأيا آخر محاولا أن يبرهنه . إنه يتساءل أولاً : « ولكن كيف يمكن الفصل بين الكبرياء وأى خطيئة أخرى ؟ » .

هل الكبرياء أصل كل الخطايا ؟

ونعجب للوهلة الأولى لماذا هو يثير هذا السؤال ، ومن المعلوم أن الكبرياء نفسها هى خطيئة ، ولكنه يسترسل قائلاً : « أن تخطئ أى خطيئة فهذا يعنى أنك متكبر ، وإن تتكبر هو أن تخطئ . وما عليك إلا أن تتساءل عن

ماهى الخطيئة وأنظر ، هل تقدر أن تجد خطيئة بدون أن تكون الكبرياء هى خلفيتها ؟ » .

ثم يواصل شرحه لهذا الرأى الذى فجره على هذا النحو : « إن لم يجانبنى الصواب ، فكل خطيئة هى نزاع مع الله ، وكل نزاع مع الله هو كبرياء لأنه ماذا يكون التكبر سوى أنه احتقار لله ؟ ، كل خطيئة إذن هى بالضرورة كبرياء . على حسب ماتقول الأسفار المقدسة : « الكبرياء أول الخطأ » (سى ١٠ : ١٤) .

ولكن هذا الرأى الذى فجره (بيلاجيوس) قد جانبه الصواب فعلا ، ولو كان قد تعمق جيداً فى دراسة الأسفار المقدسة ، لوجد أن خطيئة الكبرياء متمايزة تماماً وقائمة بذاتها عن باقى الخطايا الأخرى حقا . هناك خطايا كثيرة ترتكب من خلال الكبرياء ولكن ليس كل عمل خاطئ يرتكب من كبرياء . فقد يخطئ الانسان عن جهل ، أو من ضعف أو من اكتئاب وهم .

إن الكبرياء رغم كونها فى حد ذاتها خطيئة عظيمة ، إلا أن لا علاقة لها بالخطايا الأخرى ، فهى لا تستتبع ولا تتزامن مع خطايا أخرى كما علقتُ أنا من قبل ، بل هى قد تهاجم بعد أعمال صالحة عُملت بصورة جيدة . أما الآية التى قد فهمها (بيلاجيوس) بمعنى آخر « الكبرياء أول الخطأ » (سى ١٠ : ١٤) . فإنها تعنى أن الشيطان ناشر الشرور ، وأصل كل خطيئة ، أسقط الإنسان الأول بنفس الطريقة التى سقط هو بها . لقد حسد الشيطان الإنسان ، فحاول خداعه بمكر ودهاء حتى جعله ينحرف عن استقامته . لأن الحية بحثت عن باب الكبرياء فى الإنسان

الكبرياء أول الخطايا وليس أسفلها

وخاطبته من خلاله ، وهكذا أمكنها أن تدخل « تصيران كالله » (تك ٣ : ٥) وهذا هو معنى « أن الكبرياء هى أصل الخطايا » (سى ١٠ : ١٣) وأن « بداية الكبرياء إنفصال الإنسان عن الله » (سى ١٠ : ١٢).

٣٤ فى فقرة أخرى يتحدث (بيلاجيوس) على هذا النحو :

« كيف يقع إنسان تحت دينونة الله بذنب خطيئة ما لا يرتكبها بإختياره بل قصراً وعن ضرورة حتمية ؟ لأن الخطيئة إن كانت حتمية على الإنسان ، فهى ليست منه ، أما أن كانت اختيارية ، فيمكن للانسان تجنبها على أية حال » .

وردنا هو : إن الخاطئ هو الإنسان مرتكب الخطيئة ، ولكن الفساد الذى فى الإنسان الذى به ترتكب الخطيئة صار ثابتا فى طبيعتنا البشرية وهو نبع دائم لتصرفاتنا الخاطئة . هذا العطب الغائر فى الطبيعة الإنسانية هو المحتاج إلى الشفاء ، وكلما تأخر هذا الشفاء كلما استشرى العطب والفساد وأرتكب خطايا أكثر بسبب مايُحدثه الفساد من ضعف وعمى حتى إن الإنسان لايرى ولايقوى على عمل البر الواجب عليه ، مثل هذا الإنسان الذى بلغ إلى هذه الحالة الخطيرة ، يجب أن تُرفع من أجله صلوات لعله يشفى ، ويعود للتمتع بحياة الصحة والعافية الروحية باستمرار وبدون انقطاع ، وأيضاً لكى لايُسلب من الزهو والأفتخار ، كما لو أنه شفى من الفساد بنفس قوة إرادته التى أحدرته إلى عوامل الفساد .

فساد الطبيعة البشرية هو أصل إرتكاب الخطايا

الكبرياء يهاجم فى النهايات

٣٥ والآن قد يتردد سؤال : لماذا لا يستأصل الله خطيئة الكبرياء من البداية ويئدها فى مهدها ، حتى لا تبقى كامنة ومترابصة فى القلب إلى حين يتمم الإنسان أعملاً صالحه ؟ لماذا لا يشفى الله النفوس الروحانية التى تترجاه بالدموع والصراخ أن يمد يمينه ويساعدها أن تتغلب على الكبرياء حال مساعدته لها فى أن تتغلب على الخطايا الأخرى التى واجهتها وسحقتها تحت قدميها ؟ .

ورغم أنه ليس لجاهل مثلى أن يتفحص أحكام الله ومشوراته العميقة ، إلا أننى بنعمته سأحاول .

الآن ، عندما يحس الإنسان بالسرور والبهجة بأنه قد اتم أعمالاً صالحة كثيرة بما فيها التغلب على الكبرياء ، فإن الكبرياء نفسه يرفع رأسه وقتئذ فرحاً ويقول « هأنذا مازلت موجوداً وعائشاً » ! .

قد يتكبر الإنسان حتى بالإتضاع

ولكن لماذا تفتخر أيها الكبرياء أما غُلبت ؟ كلا ، لم أُغلب لأنك تفتخر حتى بأنك متواضع ؟ ، فحتى الأفتخار بالغلبة على الكبرياء هو فى حد ذاته كبرياء ، فكيف يُقهر الكبرياء إذن ؟ .

أعتقد إن كل ظلال الكبرياء ستتلاشى فى قيظ الظهيرة التى وعدنا بها الرب فى أسفاره المقدسة إذ يقول : « يُخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة » (مز ٣٧ : ٦) ومن هو الذى سينال هذا ؟ إنه الذى عمل بالآية السابقة لتلك أى « سلم للرب طريقك وأتكل عليه وهو يُجرى » (أية ٥) فالمسألة ليست على مايعتقد البعض هى حذاقة الإنسان وكفاءته ، كونه يعمل أعمالا صالحة ويتغلب على الكبرياء ولكنها

الاعتراف لله بكل الفضل

متوقفه على ذلك الذى « يُجرى » إنه الله وحده الذى يُجرى وليس هناك آخرون يُجرون معه . الأمر يبدو كما لو أن نفوسنا هى التى تعمل الأعمال الصالحة وهى التى انتصرت على الكبرياء ، ولكن علينا أن لا نشك ولا لحظة واحدة « أننا نحن عاملون معه » (٢ كو ٦ : ١) أى مع ذاك الذى يعمل العمل كله فنعمته تسبقنا حتى نعيش حياة بارة ، ونعمته تتبعنا أيضاً حتى لا تتلفنا الكبرياء ، وحتى نستمر فى حياة البر فإننا بدونه لانقدر أن نفعل شيئا (يو ١٥ : ٥) والأسفار المقدسة تشير إلى كلتا العمليتين اللتين للنعمة - فيقول عن النعمة التى تتقدمنا : « إلهى رحمته تتقدمنى » (مز ٥٩ : ١٠) وتقول أيضاً عن النعمة التى تتبعنا : « إنما خير ورحمة يتبعاننى كل أيام حياتى » (مز ٢٣ : ٦) .

فلنعترف بفضل الله على حياتنا ، ولا نتفاخر بتبرير ذواتنا وتزكية أنفسنا . لأنه لو كانت طرق حياتنا هى طريقنا نحن ، فحياتنا بلا شك ليست بارة . فلنعترف لله بهذا ولا نحاول أن نداريها ، فإنها ليست مستورة عنه . إن الأعتراف لله هو شئ رائع .

٣٦ الله يمتحنا مايريده هو ... فكل مافينا هو من الله ، أما لو كانت فينا أمور لايرضاها وليست بحسب مشيئته ، فينبغى أن لا نرضى بها نحن أيضاً كما قال الأنجيل : « مانسيناك (يارب) ولاخنا فى عهدك ، لم يرتد قلبنا إلى الوراء ولا مالت خطواتنا عن طريقك » (مز ٤٤ : ١٨ ، أش ٦٣ : ١٧) . فالطريق الذى تسير فيه حياتنا هو طريق البر الذى هيأه الله لنا وهو يجعل ماله كأنه طريقنا نحن ! فالمسيح هو الذى يعطينا امتياز الإيمان به ، والرجاء بأنه سيوصلنا إلى كمال البر .

طرق الإنسان كلها من عند الرب

أما (البيلاجيون) فقد جهلوا طريق البر الإلهى ، ورسموا لأنفسهم طريقاً للبر من تصميماتهم البشرية ظانين أنهم يغيرون للرب : « لهم غيرة لله ولكن ليست حسب المعرفة ، لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم لم يُخضعوا لبر الله ، لأن غاية الناموس هى المسيح للبر لكل من يؤمن » (رو ١٠ : ٢ - ٤)

مثل هؤلاء يزعجهم صوت المسيح القائل : « أنا هو الطريق » (يو ١٤ : ٦) أما صوت الله للسائرين فعلا فى الطريق الإلهى فهو : « تموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل مسرته » (فى ٢ :١٢) هذا حتى لايصيبهم الغرور وكأنهم بقوتهم الخاصة يسيرون فى طريق بر المسيح . ولنفس هذا السبب يخاطبهم المزمور : « اعبدوا الرب بخشية وهللوا له برعدة ، أقبلوا التقويم لئلا يغضب الرب فتبيدوا من طريق البر عندما يتقد غضبه فجأة عليكم » (مز ٢ : ١١ ، ١٢) وواضح أن الذين يحذرهم هم السائرون فعلاً فى طريق بر المسيح .لأنه لم يقل « لئلا يغضب الرب ويرفض أن يريكم طريق البر » ، ولا قال : « يرفض أن يقودكم فى طريق البر » ، ولكن حتى بعد أن تكونوا سائرين فعلا فى طريق البر يغضب ، فتبادون من ذاك الطريق . ولكن ما الذى يجعل الله يغضب على السائرين فى طريق بر المسيح ؟ أنه لوتسرب إلى قلبهم فكر الكبرياء (كما قلت مرارا ، ومستعد أن أكرر مرة ومرات) الذى ينبغى أن نتحفظ منه جدا حتى بالنسبة لأعمال الصلاح وطرق البر . لأن الإنسان سرعان مايفقد الأمور الإلهية من حياته إن هو حسبها أنها من ذاته

الكبرياء يجعل الله يطردنا من طريقه إلى طرقنا البشرية

طرق الرب نعمة للإنسان

ونسبها إلى نفسه . لأن الله يكون قد تخلى عنه ، وتُختزل كل أعماله إلى ماهو فى نطاق إمكانياته البشرية كى مايختبر ضعفه . فيعود متعظاً وهو يقول : « طوبى لجميع المتكلين عليه » (مز ٢:١٢) ، فالله هو القوة المؤثرة الظاهرة فى أعمالنا ، لأنه هو نفسه يوضح طريقه فينا حينما نتوسل إليه : « أرنا يارب رحمتك » (مز ٨٥: ٧) فيجعلنا نسير فى طريق الأمان إذ نصل إليه أيضاً « وأعطنا خلاصك » (مز ٨٥ :٧) وليس هذا فقط بل ويقودنا هو فى طرقه إذ نتوسل إليه : « علمنى يارب طريقك أسلك فى حقك ، وحد قلبى لخوف أسمك » (مز ٨٦ :١١) وليس هذا فقط بل يُمسك بيميننا ويتقدم بنا حتى مواعيده التى وعدنا هو بها « فهناك أيضاً تهدينى يدك ، وتمسكنى يمينك » (مز ١٣٩:١٠) وليس هذا فقط ، بل أنه هو بنفسه يرعانا ونحن متكئون مع إبراهيم وأسحق ويعقوب ، فهو الذى قال : « الحق أقول لكم أنه يتمنطق ويتكئهم ويتقدم ويخدمهم »(لو ١٢:٣٧) .

نسير فى طريق الله بإرادتنا المتواضعة

ونحن فى كل هذا لا نلغ حرية إرادة الإنسان ولكننا نكرز بنعمة المسيح . لأنه لمن كل هذه النعم الجزيلة إلا لمن يطلبها ويستخدمها بإرادة متضعة ، غير مفتخر لا بقوته ولا بقدرته ولكن فقط بذاك الذى يرحم .

٣٧ أما القول : « بأنه لو أستطاع إنسان أن يكون بلا خطيئة لأصبح فى مكانة تعادل الله » ، فحاشا لنا أن نقول ذلك ، لأنه من المستحيل وضع هذا التناظر والمساواة ولا يمكن أبداً لمخلوق أن يكون معادلا لله الخالق حتى لو كان كاملا للغاية وبلغ ذورة القداسة بحيث لا يقبل زيادة ،

الإنسان الكامل فى البر لا يعادل الله

فإنه قد يشبه بملاك وليس بالله لأن البعض يستنتجون أن تقدم الإنسان فى الكمال يغيره ويحوله إلى نفس مادة جوهر الله ! .

وأنا من جهتى أشجب هذا القول ، وعلى من ينادون به أن يراجعوا أنفسهم ، على أى أساس بنوا رأيهم هذا ؟ .

٣٨ لقد وافق (بيلاجيوس) على رأى الكنيسة الجامعة فى نقطة حساسة حين قال : « يبدو أن ما تؤكده (الكنيسة) بإن زعم إمكانية أن يكون إنسان بلا خطيئة هو زعم من قبيل الكبرياء » ولكن أرجو أن يكون رأيه هذا نفسه ليس على سبيل الكبرياء ، فقد أكمل قوله هذا بدقة شديدة وإخلاص إذ قال متسائلاً : « على أى جانب ينبغى علينا أن نضع الأتضاع ؟ هل على جانب الحق ، أم الباطل فإن برهنتم أن الكبرياء توضع مع الحق ، فلا مناص إذن من وضع التواضع مع الباطل » ، لذلك فهو يقرر بكل الصدق أن التواضع ينبغى أن يوضع إلى جانب الحق وليس الباطل ، وهذا ما أيده الإنجيل بالآية : « إن قلنا اننا بلا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا » (يو ١ : ٨) ، فمن يعتقد أنه يتكلم الحق ، عليه أن يعترف أنه ليس بلا خطيئة ، ولا يظن إطلاقاً أنه يقول هذا على سبيل الأتضاع ، ولذلك أضاف الإنجيل : « وليس الحق فينا » حاسباً أنه قد يفترض البعض عن القول « نضل أنفسنا » هو لأمتداح الإنسان نفسه أكثر ، وليس لوصف حقيقة واقعة . لأننا لو ظننا أن قولنا « أننا لسنا بلا خطيئة » هو على سبيل الأتضاع ، فإننا نضع الاتضاع مع الباطل ، وهكذا نفقد جزاء الحق .

الأتضاع والحق

٣٩ ولكن بعد ذلك يزكى (بيلاجيوس) نفسه ويتملق ذاته لذاته لكونه يبارك الله بامتداح الطبيعة البشرية وأظهار روعتها .. ولكنه فى

الله الخالق هو الله المخلص

تماديه بدفاعه عنها يرفض أن يبارك الله على كونه شفى هذه الطبيعة بكثرة تحننه . انه يركز على روعة الطبيعة وينسى شفقة الطبيب ، مع أن خالق الطبيعة البشرية هو هو نفسه مخلصها . لاينبغى على أية حال أن نركز على الإبهار فى عملية الخلق إلى الدرجة التى نقنع أنفسنا فيها أن الخلاص لم يكن له لزوم . علينا أن نمدح طبيعة الإنسان مدحا حقيقياً لائقاً ، مسبحين وممجدين الخالق على هذا الخلق الرائع ، وفى نفس الوقت لا نكون جاحدين لنعمة شفاءه لنا . ينبغى أن نقدم الامتنان لله على هذه وتلك .

خطايانا التى تلبكت بها طبيعتنا البشرية ، والتى يشفينا منها الله ، لا ينبغى أن ننسبها إلى عمل الله ، بل هى من عناد الإنسان الذى لم يثبت فى الصلاح . لذلك علينا أن نسلم خطايانا تلك إلى عقوبته العادلة ، كما لو كان فى مقدرونا أن لا نرتكبها على أى وضع ، معترفين لرحمة مخلصنا يسوع التى تخلصنا من تلك الخطايا ، والتى لم يكن فى مقدرتنا وحدنا الخلاص منها . أنها رحمته ومعونته هى التى شفتنا .

ولكن (بيلاجيوس) يقصر هذه النعمة على غفران التعديات الماضية ، وليس للوقوف معنا لتجنب السقوط فى الخطايا ! وهنا يكمن خطأه المميت : فإنه بقوله هذا دون أن يدرى يعوقنا عن أن نسهر ونصلى كأمر مخلصنا كى لا نقع فى تجربة (متى ٢٦ : ٤١) حيث أنه بحث وخلص وأستنتج إن أمر عدم سقوطنا فى خطيئة يرجع برمته إلى إرادتنا وتصرفنا نحن .

هل أنتقل القديسون وهم بلا خطيئة ؟

٤٠ كل من عنده النظرة المتزنة للشخصيات التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس ، يجد أننا نقرأ عن خطايا العديدين منهم . وطبعاً ليس الغرض من سرد خطايا الشخصيات فى الأسفار المقدسة هو أن نيأس حين يرى الإنسان الذى يقرأها فى أنها ضمان له على نحو ما إنه لايوجد إنسان بلا خطيئة ، وهذا يشجعه على السقوط ! كلا بالطبع .

الحكمة من تسجيل خطايا القديسين فى الكتاب المقدس

ولكن غرض سرد السقطات فى الكتاب المقدس هو لكى يتعلم الإنسان الذى يقرأها إتضاع التوبة . وأيضاً يتعلم أنه فى حالات سقطات مماثلة لا ينبغى أن يتسرب اليأس من الخلاص إلى قلبه . لأن بعض الساقطين هلكوا ، ليس من السقطة نفسها بل من يأسهم المتهور . حين أستعبدوا للشهوات والأهواء الشريرة ، ناسين تعاطى دواء التوبة ، راكضين فى شتى دروب السفالات ، كما لو أنهم سيخسرون خسارة جسيمة أن هم لم يتمموا ماتمليه عليهم شهواتهم الشريرة ، فيهملون تدابير التقوى من حياتهم . هؤلاء تنتظرهم دينونة رهيبة . فلتجنب هذا التخريب والتدمير فى حياة الإنسان والتمادى فى هذا التهور الوبيل ، يجد قارئ الكتاب المقدس قوة عظيمة فى تسجيل مثل هذه الخطايا التى سقط فيها من قبل أبرار وقديسون .

٤١ ولكن (بيلاجيوس) يتحدى بسؤال خطير :

« على أى وضع نفترض أن القديسين فارقوا هذه الحياة ؟ هل وهم خطاة أم وهم بلا خطيئة ؟ » .

فلو أجبنا أنهم فارقوا الحياة وهم خطاة ، فسيكون مصيرهم الدينونة كما تعرف ، وسيكون هذا الأمر صدمة وخيبة أمل حال تصوره ، أما لو كانت إجابتنا أنهم فارقوها وهم بلا خطيئة فسيعتقد (البيلاجيون) أن هذا برهان على رأيهم بأنه من الممكن لإنسان أن يكون بلا خطيئة فى هذه الحياة الحاضرة حتى وهو فى ساعة موته الأخيرة .

ولكن دعونا نناقش هذا التحدى لنقول سؤالا : أليس الأبرار والقديسون هم الذين يرفعون صلواتهم إلى الله ومنها الطلبة : « أغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » ؟ وهذه الطلبة لا يرفعونها إلى الله باطلاً ، لأن ربنا يسوع المسيح بعدما حث تلاميذه أن يصلوا بالصلاة الربانية ، قال على الفور شارحاً : « لأنه أن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم » (متى ٦ : ١٢ ، ١٤) .

كيف ينتقل القديسون من هذه الحياة وهم بلا خطيئة

هنا ، نجد البخور اليومى الحقيقى الذى للروح ، البخور المرفوع على مذبح القلب الذى أمرنا الله أن نُصعده ، موقنين أننا وأن كنا هنا لانقدر أن نعيش بلا خطيئة ، إلا أننا سننتقل ساعة الموت بدون خطيئة ، حينما تمحى ذنوبنا التى أذنبنا بها عن جهل أو عن ضعف ، برحمة الغفران .

٤٢ بعد ذلك يسرد (بيلاجيوس) قوائم باسماء قديسين وقديسات من الكتاب المقدس ، ليس فقط قد عاشوا حياتهم بلا خطيئة ، بل عاشوها فى قداسة وتقوى : هابيل ،أخنوخ ، ملكيصادق ، إبراهيم ، أسحق ، يعقوب ، يوسف ، يشوع بن نون ، فينحاس ، صموئيل ، دانيال ، حنانيا ، عزريا ، ميصائل ، مردخاى ، سمعان الشيخ ، يوسف النجار خطيب مريم ، يوحنا الرسول .

وهو أيضاً يضيف اسماء بعض النساء : ديورة ، حنة أم صموئيل ، يهوديت ، أستير ، وحنة الأخرى بنت فنوئيل ، أليصابات ، وأيضاً أم ربنا ومخلصنا التى منها - لأجل احتياجنا - لانسمح أن يشوب حنانها أى شائبة خطيئة » .

العذراء الممتلئة نعمة بلا خطيئة

ونحن من جانبنا لا نختلف عن ضرورة أستثناء القديسة العذراء مريم ونحن نتناول موضوع الخطيئة ، وذلك لأننا قد عرفنا من ربنا المحبوب مقدار فيض النعمة للتغلب على الخطيئة ، فكم بالحرى القديسة مريم الممتلئة نعمة .. لقد أفاض بنعمته الخاصة عليها ، تلك التى أستحقت أن تحبل به ، فهى بلا خطيئة قطعاً « وتعلمون أن ذاك أظهر لكى يرفع خطايانا وليس فيه خطيئة » (١ يو ٣ : ٥) .

والآن ، بعد هذا الاستثناء الخاص بالعذراء مريم ، يمكننا أن نضم معاً جميع الرجال القديسين وكل النساء القديسات ونسألهم : هل عشتم بلا خطيئة طوال وجودكم فى هذه الحياة ؟ ترى ماذا ستكون إجابتهم ؟ هل سيجيبون بما أفترضه (بيلاجيوس) فيهم ، أم سيجيبون بما قاله

الرسول يوحنا : « إن قلنا أننا بلا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا » ؟ (١ يو ١ : ٨) وسأترك تقدير هذا لحكمكم .

القديسون سيعترفون بالحقيقة أنهم خطاه

وقد يعترض (بيلاجيوس) بأنهم وهم فى هذه الحالة الفائقة من القداسة قد يجيبون جميعهم بصوت واحد بكلمات الرسول يوحنا ، ولكن ستكون إجابتهم هذه من أجل شدة اتضاعهم فهم يُقرون بما ليسوا هم عليه فى الواقع ! .

ولكن (بيلاجيوس) كان قد أقر منذ قليل إقرار الصدق والحق : « لاينبغى أن نضع مجد التواضع على نفس جانب الباطل والتزييف» .

فلو أجاب القديسون بكلمات الرسول يوحنا ، فهم بلا شك صادقون ويعنون ما يقولون ، أى أنهم فعلاً خطاة ، وهم بإتضاع يدركون هذه الحقيقة ، لذلك فإن الحق فيهم ، ولكنهم إن كذبوا بأن قالوا مالا يعنـون ، فهذا فى حد ذاته خطيئة ، وسوف لا يكون الحق فيهم .

٤٣ ولكن قد يعترض (بيلاجيوس) : « إن هؤلاء القديسين سيقولون إن الكتاب المقدس لم يذكر عنا إننا أذنبنا فى شئ ولم يسرد أى خطيئة لنا ، فى حين أن الذين أخطأوا سواءً من الأخيار أم الأشرار ذكر الكتاب المقدس كل تفاصيل خطاياهم » .

وليت (بيلاجيوس) كان قد صمت بدلا من أن يضع تلك الإجابة غير المعقولة كردٍ للقديسين على ذاك السؤال ،ولكنه يتمادى قائلاً :

« قد يوجه هذا السؤال لمن لم يحدد الكتاب المقدس ما إذا كانوا أخياراً أم أشراراً ، ولكن طالما هؤلاء القديسون قد حفظ

لهم الكتاب المقدس ذكر قداستهم فقط ، وكان من الممكن أن يذكر خطاياهم إن كان لها وجود كالآخرين ، ولكن مادام لم يذكر شيئاً من هذا ، فخطاياهم ليس لها وجود إذن » .

فليقل لنا (بيلاجيوس) أيضاً عن الجموع التى تقدمت وتبعت المسيح أثناء دخوله أورشليم فى أحد الشعانين ، وهو راكب على الأتان وهى تصرخ بإيمان عظيم « أوصنا لأبن داود مبارك الآتى باسم الرب » (متى ٢١ : ٩) وكانوا على مستوى عالٍ من البر وسط الحاقدين الذين كانوا يهمهمون على المسيح ، فليخبرنا ويؤكد لنا إن أستطاع : هل لم يكن أحداً من بين هؤلاء الجموع المتهللة بالمسيح لم يخطئ على الإطلاق ، علما بأن الإنجيل لم يذكر خطيئة واحدة لأحدهم ؟

الكتاب المقدس لايذكر كل خطايا الجميع

طبعا من السخف أن نقول بهذا ، فلقد سجل الإنجيل إيمانهم العظيم وبرهم الفائق فى إتباع المسيح ، وليس علينا أن نبحث فى تفاصيل خطايا لهم ! .

٤٤ ويبدو إن مثال جموع أحد الشعانين كان يجول بذهن (بيلاجيوس) نفسه فقد لاحظ ما استنتجناه من أن الكتاب المقدس لا يذكر كل خطايا كل الشخصيات التى ورد ذكرها فيه .. ولكنه رغم هذا يستمر قائلاً :

« مع تسليمنا عند ذكر جموع محتشدة فى الإنجيل ، ولايكتب قوائم بخطايا الجميع . ولكن فى بدء تكوين العالم ولم يكن على الأرض سوى أربعة أشخاص ، فلماذا ينتقى

البعض ليذكر خطاياهم كلها ؟ . هل أخذ فى الاعتبار الجماهير الغفيرة التى لم تكن قد أتت بعد إلى الوجود ؟ أم أنه ذكر خطايا الذين تعدوا فعلاً ، ولم يستطع أن يسجل خطايا لم ترتكب بعد ؟ » .

ثم يستمر بعد ذلك مضيفاً بعض العبارات يكشف بها الفكرة التى يعنيها بتصوير أوفى وأوضح قائلاً :

« فى بداية الأيام ذكر الكتاب المقدس أربعة أشخاص هم آدم وحواء وولديهما قايين وهابيل ، حواء أخطأت ، ولقد ذكر الإنجيل الكثير عن هذا ، وآدم أيضاً تعدى وهذا لم يقصر الإنجيل فى أن يخبرنا به ، كذلك قايين شهد الكتاب المقدس بوضوح عن خطاياه . فهؤلاء الثلاثة سرد الكتاب المقدس خطاياهم وطبيعتها وسماتها . فلو كان رابعهم هابيل الصديق قد أخطأ بالمثل لما تأخر الإنجيل فى أن يخبرنا بهذا ، ولكنه لم يخبرنا ، إذن فليس هناك خطيئة أرتكبها هابيل ، بل على العكس شهد الإنجيل له إنه بار .. فما نقرأه فى الإنجيل إذن فلتؤمن به ، وما لم نقرأه هناك فليكن باطلا وكل من يضيف إليه فليُحسب اثيما .

بيلاجيوس يجادل فى كون هابيل لم يخطئ

٤٥ لقد نسى (بيلاجيوس) الفقرة التى أستهل بها هو نفسه قوله حين قال : « بعدما تكاثر الجنس البشرى وكثر ، أصبح من الممكن أن لا تتابع الأسفار المقدسة كل خطايا كل الأشخاص العديدين المذكورين هناك واهمل ذكرها وسط ذلك الخضم الهائل من الناس » .

الأسفار المقدسة لا تكتب إلا ما يفيد القارئ فى علاقة مع الله

فلو كان قد وعى فى ذاكرته جيداً ماقاله ، لكان قد أقر أيضاً أنه وحتى فى حالة الشخص الواحد هناك خضم هائل من الخطايا والهفوات ، يكون من الصعب بمكان (بل وحتى إن أمكن ، فسيكون من غير المستحب) سردها ووصفها تفصيلاً .

لأن الروح القدس يسجل نماذج قليلة فى الحدود المسموح بها ، يكون لها فائدة خدمة وتعليم القارئ فى الحالات الكثيرة التى يحتاج فيها إلى النصح . وحتى فى بدء التكوين لم تشأ الأسفار المقدسة إن تذكر كل شئ عن الأعداد القليلة من الناس التى كانت متواجدة آنذاك سواءً كم كان عددهم أم من كانوا . فالأسفار المقدسة لم تذكر كم أبن وأبنة ولدوا لآدم وحواء وماذا كانت أسماؤهم ، حتى أن البعض شطحوا فى تصوراتهم مفترضين إن قايين عاشر أمه وأنجب منها أبناءه المذكورين له ! ظانين أن أبناء آدم لم يكن لهم أخوات ، لأن الإنجيل لم يذكرهن من البداية ولم نعرف عن أسمائهم شيئاً ، بالرغم من أن الإنجيل ذكرهم إجمالا بعد ذلك . أى ان آدم « ولد بنين وبنات » (تك ٥ : ٤) دون أن يضيف فقرة واحدة ليبين عددهم ومتى ولدوا .

وحتى فى التكوين لم يذكر الإنجيل تفصيلا عن أخوات قايين وهابيل

مظاهر تلك الخطيئة فى الجسد البشرى المائت

هكذا وبنفس الطريقة لم يكن ضروريا أن تُسجل الأسفار المقدسة كل شئ عن هابيل البار : هل حدث مرة أن أنفجر ضاحكاً بلا اعتدال ؟ أو كان يمزح فى وقت من أوقات الأسترخاء ؟ أو ان كان مرة نظر بعين الطمع لشئ

ما ؟ أو خزن فاكهة بلا داعى لمجرد الإمتلاك ؟ أو أنه عانى من الشراهة والنهم والتخمة من الطعام ؟ أو أنه وسط صلواته سمح لأفكاره أن تشرد وتخرج عن عمل التكريس ؟ وكم عدد السقطات الخفية تسللت إلى ذهنه ؟ .

أليست مثل هذه السقطات هى خطايا قد أوصانا الرسول بولس فى وصاياه وتدابيره لنا أن نتعفف عنها ونتجنبها ؟ فهو يقول : « إذا لا تملكن الخطيئة فى جسدكم المائت لكى تطيعوها فى شهواته » (رو ٦ : ١٢) . ولكى يفلت من هذه الطاعة للشهوات يحتاج الإنسان أن يجاهد فى صراع يومى مستمر ضد الأهواء النجسة غير اللائقة . لأن العين إن هى أستغرقت فى النظر إلى شئ كان من المفروض أن لا تنظر إليه ، فإن ضرر الأشتهاء يقوى ويتسيد حتى يبلغ الزنى ذورته فى الجسم . رغم أن ذلك الزنى لم يرتكب إلا فى القلب فقط ، إلا أنه أكثر شيوعاً وسرعة ، حيث أن الفكر هو أسرع من الفعل ، ولايوجد أمام الأفكار أى عائق يبطئها أو يؤخرها . على أية حال ، الذين بلغوا درجات روحانية عالية ، أستطاعوا أن يلجموا هذه الشهوة العاطفية الفاسدة ويبيدوا هذه الخطيئة من أفكارهم ، كى لا يطيعوها من أهوائها « ولا يقدمون أعضاءهم آلات أثم للخطيئة (رو ٦ : ١٣) أنهم المستحقون بحق أن يدعوا أبراراً ... ولكن هذا لايكون إلا بمعونة النعمة الإلهية لهم . ولكن أيضاً حتى هؤلاء الأبرار قد تداهمهم هفوات صغيرة جداً عندما يكونون فى أجازة من حارسهم (أى نعمة الله) فرغم كونهم أبراراً ، إلا أنهم فى الوقت ذاته ليسوا بلا خطيئة .

ابرار ولكنهم ليسوا بلا خطيئة

محبة الإنسان لله

ملخص هذا ، لقد كان هابيل إنساناً يحب الله ، ولمحبة الله التى كانت فيه أصبح باراً . **فحب الإنسان لله هو الذى يجعل الإنسان باراً ، لأن هذا يجعله ملتزما بالأخلاقيات التى يتقدم بها إلى القداسة** . ولكن الإنسان لو قصر ولو تقصيرا طفيفا ، فعلى الفور تكون الخطيئة . ومَن من البشر يمكنه تجنب ذلك التقصير ، مالم يكن مسنوداً ومدعما بالقوة العالية التى تلاشى كل ضعف فى الإنسان ؟ .

٤٦ أما بخصوص الفقرة التى ختم بها قوله ، فهى عظيمة ورائعة ، حيث قال : « مانقرأه فى الإنجيل ، فلنؤمن به ، ومالا نقرأه هناك فهو باطل ، وكل من يضيف زيادة عليه فليُحسب أثيماً » .

قراءة فافراز وإضافة بإيمان صالح

على العكس ، إننى من جانبى أقول أنه علينا أن لا نؤمن بكل مانقرأ ، طبقا لما نصح به الرسول : « (أقرأوا) واختبروا كل شئ ، وتمسكوا بالحسن » (١تس ٥ : ٢١) ، كما إن إضافة إمورٍ هى ليست أثما طالما يتوفر الإيمان الصالح ، كمثل الأختبارات والشهادة على عمل الله ، حتى لو تصادف أننا لم نقرأ من قبل عنه .

ربما يرد قائلا : « أننى أقصد الأسفار المقدسة وليس الكتابات الأخرى » .

آه ، كم أريد أن يطبق هذا القول على نفسه ! ليته يؤمن بما هو مكتوب : « بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا أجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢)

(الجميع) حتى لو كره بيلاجيوس ، عليهم أن يعترفوا أن الطبيعة البشرية فاسدة ! .

إننى لا أقول شيئا من عندياتى إن هذا هو ما نقرأه فى الأسفار المقدسة التى عليه أن يؤمن بها ، ولا يفهمها بعكس ماهو مقصود بها ، بل تكون لديه الأمانة والطاعة حين يسمع ماهو مكتوب . آه ، كم أود له كمسيحى أيضاً أن يقرأ الآيه : « ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص » (١ ع ٤ : ١٢) فيُقدر نعمة طبيبنا العظيم يسوع ، ولا يعتبرها ضعفاً متمسكا بدلا منها بإستماته بإمكانيات الطبيعة البشرية ، وكأن على الإنسان أن يؤمن أن فى إمكانه الخلاص بإرادته الحرة فقط ، وبدون اسم يسوع المبارك ! .

ليت بيلاجيوس يؤمن بالكتب المقدسة

٤٧ أهمية الرب يسوع بالنسبة (لبيلاجيوس) تنحصر فى أننا نتعلم من أناجيله كيف يجب علينا أن نعيش ، أى نتعلم سلوكيات الحياة ، وليس لكى نأخذ منه معونة ونعمة نقدر بهما أن نعيش حياة صالحة .

لم يات المسيح ليعطى نظاما سلوكيا للإنسان بل جاء ليُعين الإنسان أن يحيا كما يجب

ولكن حتى لو كان قد فهم أهمية المسيح على النحو الذى ارتآه ، لكان قد اكتشف بسرعة مدى ظلام العقل البشرى وشقاءه ، ولعرف ضعف الإنسان الذى استطاع أن يروض الوحوش الكاسرة ، ولكنه لايعرف كيف يعيش كما يجب . لأنه آنذاك سيعرف مدى ضعف حرية إرادته وفساد ناموسه الطبيعى . إنه يريد أن يسلك بحكمة هذا العالم التى بها « يتعطل صليب المسيح » (١كو ١ : ١٧) .

فالذى قال : « سأبيد حكمة الحكماء ، وأرفض فهم الفهماء » حيث لا يمكن أن يتعطل صليب المسيح ، سيستخدم جهالة الكرازة لرفض تلك الحكمة ولشفاء كل من يؤمن بها ، لأنه لو كانت القدرة الطبيعية بمساعدة الإرادة الحرة كافية وحدها لأن يكتشف الإنسان كيف يجب أن يحيا ، ويعيش حياة مقدسة ، يكون المسيح إذن قد مات بلا سبب (غل ٢ : ٢١) وتكون « عثرة الصليب قد بطلت (غل ٥ : ١١)

هذا مايجعلنى أنادى بأعلا صوتى ، بل سأظل أنادى بنبرة الأسى المسيحى : « قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس سقطتم من النعمة » (غل ٥ : ٤) « لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ، ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم ، لم يخضعوا لبر الله » (رو ١٠ : ٣) لأنه كما أن « المسيح هو نهاية الناموس » هكذا بالمثل ، المسيح هو مخلص طبيعة الإنسان من الفساد « المسيح هو للبر لكل من يؤمن » (رو ١٠ : ٤) .

٤٨ عندما يواجه (بيلاجيوس) بالآية : « إذ الجميع أخطأوا » (رو ٣ : ٢٣) يشرح فهمه لمعناها على هذا النحو قائلاً : « من الواضح أن الرسول كان يتحدث عن جيله المعاصر آنذاك أى اليهود واليونانيين » ! .

ولكننا نؤكد من آية أخرى وهى : « بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا أجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢ ، تعنى الشمول فى مضمونها ، أى كل الأجيال القديمة والحديثة والآتية ، أى نحن وأجدادنا وأحفادنا .

ويقتبس (بيلاجيوس) آية أخرى لكى يبرهن أن لفظ « جميع » المستعملة فى الآية لا تعنى الكل بلا أستثناء وهى : « فإذن كما بخطيئة واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة » (رو ٥ : ١٨) .

فهو يقول : « لاشك أنه ليس جميع الناس سيتقدسون ببر المسيح ، بل فقط الراغبين أن يطيعوه وقد تطهروا بغسل معموديته » .

الجميع تحت الدينونة

ورغم أن الآية التى أقتبسها تحتوى على فقرتين إلا أنه لم يعلق إلا على الفقرة الثانية ولم يقل لنا شيئا عن الفقرة الأولى وهى : « بعثرة الواحد صارت الدينونة على الجميع » من حيث أنها مكتوبة بألفاظ شديدة الوضوح لا تعنى إلا أن الجميع بلا استثناء واقعون تحت دينونة الخطيئة . وحتى الفقرة الثانية التى أختار أن يُعلق عليها لا تخدم غرضه : « ببر الواحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة » حيث تعنى أن أحداً لا يتبرر مالم يؤمن بالمسيح ويتطهر بمعموديته ، بلا أستثناء أيضاً . فكلمة « جميع » تجعلنا لا نتصور أن أحداً يمكنه أن يخلص بأى طريقة غير الإيمان ببر المسيح يسوع ،

كما لو كان قد تعين لمدينة ما أحد المعلمين ليُعلم أهل المدينة . فنحن على صواب أن قلنا أن هذا الإنسان هو معلم كل المدينة ، ونحن لا نعنى طبعاً أن كل فرد فى المدينة قد أخذ دروساً منه ، ولكن نعنى أن أى إنسان متعلم فى هذه المدينة يكون قد تلقى علومه من هذا المعلم الوحيد . هكذا بنفس الطريقة ، لا أحد يتبرر مالم يكن المسيح قد برره .

٤٩ ولما لم يجد (بيلاجيوس) حجة تدعم رأيه قال عنى : « إن كان يحاول بكل جهده أن يتلمس حقيقة أن الجميع كانوا خطاة بلا أستثناء فليكن ، إننى موافق ، ولكنه لم يتكلم عن وضع آخر ينبغى أن يكونوا عليه ، لذلك فحتى لو أمكنه أن يبرهن على أن جميع الناس خطاة ، فإن هذا لايتعارض بأى حال من الأحوال مع موقفى المحدد فى كونى لا أركز كثيراً على ماهو عليه البشر بل أركز على مايستطيعون أن يكونوا عليه » .

بيلاجيوس يقر بأن الجميع خطاه

جيد هو إقرار (بيلاجيوس) إن أى إنسان حى لا يتبرر فى عينى الله ..

ولكنه يجادل فى أنه لا يركز على هذه المسألة ، ولكن نقطة بحثه التى يركز عليها هى إمكانية أن لايخطئ الإنسان . وهذا الموضوع الذى يركز هو عليه ليس ضرورياً بالنسبة لى . لأننى لا يهمنى أن أبرهن برأى محدد فى هذا الموضوع أى : ما إذا كان قد وجد فى الماضى إنسان على الأرض لم يخطئ أو أنه موجود حالياً أو سيوجد فى المستقبل . إنسان بلغ ذورة الكمال فى محبة الله (لأن أقل نقص فى محبة الله لدى إنسان يدل على عدم كماله وعدم صدقه) ولكى أكون مقتنعا إقتناعا تاماً ينبغى أن أعرف متى وأين ومن هو الذى بلغ ذورة الكمال . فى حين أن ما **أمكننى التوصل إليه هو أن الإنسان يمكنه بلوغ ذورة الكمال بإرادته الحرة المدعومة من نعمة المسيح .**

محبة الله وكمال البر

فإذا أنتقلنا إلى الإمكانية الفعلية ، موضوع النزاع ، لنطبقها على القديسين نجد أن إرادتهم الحرة كانت معطوبة بالخطيئة ثم شفيت بنعمة المسيح . أما امتلاؤهم بمحبة الله فقد جرى بقدر ما أستطاعت طبيعتهم التى شفيت أن تستوعب هذه المحبة « قد أنسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

هذه المحبة التى هى العامل الأول كى يكون الإنسان باراً ، مصدرها نعمة روح الله القدوس (ويحاول بيلاجيوس بكل حماس أن يجعل مصدرها الطبيعة البشرية) ، بعدما صار معلوماً لديه :

الخالق والمخلص ونعمة الروح القدس

إن مخلصنا لا يقل فى شئ عن خالقنا ، فكما أنه خلقنا بدون مشاركة منا ، هكذا يخلصنا بدون الحاجة إلى طبيعتنا الغير قادرة أن تشاركه أو تعوقه عن خلاصنا مهما دافعت بأنها عاقلة ولها قدرات كاملة وشاملة ! .

٥٠ جميل أيضاً إلى حد ما ، ماقاله (بيلاجيوس) : « إن الله كما هو صالح كذلك هو عادل . ولقد جبل الإنسان بحيث يمكنه أن يعيش بلا شر تماماً وبدون خطيئة فقط لو رغب » .

كلنا يعرف هذا ، إن الإنسان خلق فى البدء كاملا بلا عيب ولديه الإرادة والإمكانية الحرة لكى يحيا حياة مقدسة فى الجنة .. ولكننا نبحث الآن فى الإنسان الذى تركه « اللصوص » (لو ١٠ : ٣٠) على قارعة الطريق بين حى وميت ، مطروحاً عاجزاً ومثخناً بجراح مريعة ،

أوغسطينوس يعلق على مبادئ عامة قالها بيلاجيوس

غير قادر أن يصعد مرتفعات البر كما كان قبلا . إنه الإنسان الذى وإن كان هو الآن « فى فندق » إلا أنه مازال تحت العلاج .

حقاً إن الله لا يأمر بمستحيلات ، لذلك هو يستشيرك فى أن تفعل ماتقدر أن تفعله بنفسك ، ثم تسأل مساعدته ليعمل لك هو ما لا تستطيع أن تعمله ومن مثل السامرى الصالح نتعلم ماهى إمكانياتنا ، ومامدى نعمة المسيح التى تساعدنا

إن (بيلاجيوس) يقول أيضاً : « مايصنعه الإنسان بالسليقة وهو على سجيته ، ليس مصدره إرادة الإنسان » .

وأقول : عندما يكون الإنسان على سجيته فهو لا يصير باراً بإرادته ، بل هو يُكمل البر آنذاك بمعونة النعمة الشافية ، تلك النعمة التى شفت طبيعته ، فأصبح يصنع البر تلقائياً بطبيعته الجديدة المتعافية .

٥١ يبدو أن المبادئ العامة التى يوردها (بيلاجيوس) ستجعلنا نتلكأ طويلاً ونشرد عن موضوعنا الأساسى .

ماعلينا ، دعونا ندخل فى جوهر موضوع الخلاف ، إن (بيلاجيوس) يركز خلافنا معه بهذا القول : « ليس من المقبول أن نستفسر ما إذا كان أى إنسان قد عاش فى هذه الحياة بدون خطيئة ، أو يوجد الآن شخص كهذا أو سيوجد فى المستقبل ، ولكننا نبحث هل أخذ الإنسان قدرات أو إمكانيات طبيعية ليكون كذلك أم لا ؟ » .

فحتى لو وافقت من جهتى أنه قد وجد أو يوجد أو سيوجد أناس بلا خطيئة ، إلا أننى لا يمكننى أن أؤكد بأى حال من الأحوال أنه كان لهم

جوهر الخلاف هل بر الإنسان من قدراته الطبيعية أم من نعمة المسيح ؟

القدرات والإمكانيات الطبيعية ليكونوا بلا خطيئة . بل هم أخذوا القدرة أن لا يخطيئوا من خلال « نعمة الله التى بربنا يسوع المسيح واياه مصلوباً » (١كو ٢ : ٢) تلك التى بها يتبررون ، فقديسوا العهد القديم قد تبرروا ونالوا شفاء طبيعتهم الفاسدة بنفس الإيمان الذى يشفى طبيعتنا الآن ... أى الإيمان فى « الوسيط الوحيد الذى بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح » (١ تى ٢ : ٥) إيمان فى صليبه ، إيمان فى دمه ، إيمان فى موته وقيامته .. إذ لنا نحن أيضاً روح الإيمان عينه ، نحن أيضاً نؤمن ولذلك نتكلم .

٥٢ ثم يمس (بيلاجيوس) أدق نقطة فى الموضوع حين يواجه نفسه بالسؤال الذى يقلقنا فيقول : « ولكنك ستقول لى إن مايقلق الكثيرين هو أنك لم توضح بالتحديد : من أن إمكانية الإنسان أن يكون بلا خطيئة لاتكون إلا بواسطة نعمة الله » .

حقاً ، إن هذا مايقلقنا ، وهذا هو مايجعلنا نجادله ، رغم أن هذا يسبب لنا ألماً باهظاً ، لأن موضوع نعمة المسيح لا ينبغى أن يكون مطروحاً للجدل بين مسيحيين ممتلئين بالمحبة الإلهية نحو الآخرين ونحو أنفسهم .

بيلاجيوس يرد بعصبية فى تعليقه على موضوع النعمة

والآن فلنستمع إلى دفاعه الخشن عن نفسه بأسلوب فظ قاسٍ على كل قلب مسيحى عامر بالحب الإلهى . إنه يقول : « يالعمى الجهل ، ويا لبلادة العقل غير المثقف حينما يظن فينا أننا نستنتج أن نعمة الله المستجيبة ليس مصدرها الله » ! .

لو كان (بيلاجيوس) قد توقف بعد هذا التصريح الهادر الذى أنفجر به ، لما كان هناك أى خلاف فى الرأى معه ، ولتصافحنا معا ... لأننا كيف نختلف مع من يؤكد بصدق إن إمكانية الإنسان فى عدم سقطوه فى الخطيئة ، تُنسب إلى الله وإلى الله فقط ؟ .

ونفترض أننا كنا منساقين وراء إشاعات خاطئة : وتقارير غير دقيقة .

٥٣ ولكن للأسف لم يتوقف (بيلاجيوس) بل واصل شروحاته بما ينبغى أن يُحتفظ ضده ويصحح فقال : « عندما يُقال أن قدرات الإنسان وإمكانياته ليست من اختيار حرية الإنسان ، بل هى من رب الطبيعة ، أى أن إمكانيات الطبيعة البشرية هى من الله ، فكيف يُمكن أن يُفهم أنها بدون النعمة التى مصدرها الله بنوع خاص » .

ها قد بدأنا نرى المفهوم المغلوط للنعمة عنده ، وحتى لا نكون متجنيين عليه فلنقرأ شرحه الذى يستفيض فيه ليتضح خطأه بكل جلاء ، إنه يقول : « ولكى نُبسّط المسألة ، سأشرح هذه النقطة بصورة أوفى . نحن نؤكد الآن أن إمكانية أى شئ للإنسان موجودة كضرورة طبيعية فيه ، ولا تتوقف على اختيار إرادة الإنسان » .

فهم بيلاجيوس المغلوط لماهية النعمة

ثم يواصل (بيلاجيوس) تصوير المعنى الذى يقصده بمثلٍ فيقول : « خذ مثلا على ذلك ، قدرتى أن أتكلم .. فكونى أستطيع أن أتكلم هذا ليس من خلق إرادتى ، ولكن عملية الكلام نفسها متروكة لاختيارى ، أى أننى

مثال عن قدرة الكلام

أستطيع أن أتكلم ، أو أحجم عن الكلام . ولكن قدرتى على الكلام ليس منى . أى ليست بإرادتى وقرارى لذلك فإنها حتمية ، حتى أننى قادر على الكلام بإستمرار ، وحتى أن أردت أن أفقد نفس قدرتى على الكلام ، لا أستطيع مالم أتلف حنجرتى التى هى عضو الكلام أو أتخلص منها » .

سهل جدا لو أحب (بيلاجيوس) أن يفقد القدرة على الكلام حتى بدون إفساد الحنجرة أو إزالتها وما أريده أن يتمعن فيه أولاً بالنسبة لموضوعنا ، لماذا يكون اعتلال عضو وفساده هو فقدانه . ليته يعرف أن فساد الطبيعة البشرية هو ضياعها وفقدانها . أقول سهل جدا لو أُغلق الفم بعصابة ولجام ، لايقدر صاحبنا أن يفتحه مرة أخرى حتى مع وجود الحنجرة بكامل قوتها وصحتها مع باقى الأطراف .

٥٤ ثم يخلص (بيلاجيوس) باستنتاج تطبيقى على موضوعنا فيقول : « إذن فكل ماهو محكوم بحتمية الطبيعة لا يدخل فى نطاق اختيار الإرادة الحرة » . وأقول هناك حالات ، لو طبقنا عليها القاعدة سنرى أنها قمة السخف .

مثلا ، طبيعة الإنسان فى أن يكون سعيداً ، فهل نقول أن إرادتنا لا ترغب فى هذا ، لأنه من الإستحالة المطلقة أن لا نرغب فى أن نكون سعداء ؟ .

مثل آخر ، إن صلاح الله حتمية كائنة فى طبيعته ، فهل نستنتج طبقاً للقاعدة أن الله ليس عنده إرادة الصلاح لأنه لايقدر أن يريد أن يخطئ ؟ .

٥٥ ولنلاحظ أيضاً مايقول (بيلاجيوس) بعد ذلك : « يمكننا إدراك أن نفس الشئ يصدق على السمع والشم والبصر . فكوننا نسمع أو نشم أو نبصر ، هذا من اختيار إرادتنا ، أما قدرتنا وإمكانية السمع والشم والأبصار ، فهى ليست من اختيارنا بل هى كائنة فى خلق طبيعتنا » .

تعليق اغسطينوس على شروحات بيلاجيوس

إما أننى لم أفهم مايقصد ، أو هو نفسه لا يفهم مايقول . لأنه كيف يكون الأبصار إمكانية حتيمة فينا ، فى حين أن العمى هو فى نطاق قدرتنا ، فنحن يمكننا أن نحرم أنفسنا من الأبصار ، بمجرد غلق الجفنين أيضاً ، كيف يمكننا أن نرى مانريد حتى وجفوننا مفتوحة وبدون فقدان للتركيبة الطبيعية لعضو الإبصار ، حين يحل الليل ، وبإبعاد كل ضوء ، أو بإن يُغلق علينا فى مكان مظلم ؟ .

الإبصار

وبالمثل ، لو كان السمع تحت حرية اختيارنا أن نسمع أو لا نسمع ، كيف غفل صاحبنا أن هناك أموراً كثيرة تخترق أسماعنا دون أن نريد كمثل صوت خواء الخنازير أو نهيق الحمير أو أزيز منشار قريب ! . فكل هذه نسمعها ضد إرادتنا طالما آذاننا مفتوحة ، أما إن أردنا أن لا نسمع فقد يلزمنا إبعاد حاسة السمع بحرية إختيارنا .

السمع

أما بالنسبة لحاسة الشم فهو لا يكترث بعقلية القارئ ، حين يقول بلا تدقيق : « أنه ليس بإختيارنا أن يكون لنا حاسة شم أم لا ولكن فى مقدرونا أن نشم أو لا نشم » ! .

الشم

لأننا لو أفترضنا تواجد شخص موثوق اليدين ، وأعضاء الشم سليمة عنده حيث ينبعث عليه روائح كريهة وخانقة ، فمع كل مرة يتنفس فيها يستنشق مالايريد .

٥٦ وهكذا نرى أن الأمثلة التى ساقها (بيلاجيوس) زائفة ومضللة ، والأكثر من هذا ، هو مايريد أن يستنتجه من ورائها ، فهو يذهب إلى القول : « بنفس الطريقة يمكننا أن نفهم بوضوح أن إمكانية عدم سقوطنا فى الخطيئة هى طبيعة فينا ، أما كوننا نقع فى الخطيئة أو لا نقع فهذا من اختيار إرادتنا » .

بطلان ما أستنتجه بيلاجيوس

إن كان يتكلم عن طبيعة الإنسان الصالحة الكاملة ، فهذه لا نمتلكها نحن الآن « لأننا بالرجاء خلصنا ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء ، ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره ، فإننا نتوقعه بالصبر » (رو ٨ : ٢٤ ، ٢٥) فما وصل إليه على أية حال ليس صحيحاً ، حيث يجعل تجنب السقوط فى الخطيئة هو فى يدنا نحن وحدنا ، بدون معونة الله ونعمته التى تسند كل من يريد الحصول عليها ، تماما كالنور الذى يساعد الأعين السليمة على الإبصار . أما إن أخطأ الإنسان فهذا منه هو وحده .

على أية حال ، أن (بيلاجيوس) يتكلم عن الطبيعة البشرية فى الحاضر ، وأعجب ، بأى قلب يفترض أننا فى مقدورنا تجنب الخطيئة بدون بيلسان مخلصنا الشافى ! ، أما يعلم من الكتب المقدسة أن الجسد الذى هو مسكننا الأرضى يثقل النفس الخالدة ، ويُحبطها بأفكار وأحاسيس عديدة ؟ كيف تكون إمكانية أن لا نخطئ هى طبيعتنا

برهان فساد الطبيعة البشرية هو علم رؤيتها لفسادها

العادية ، فى حين أن تلك الطبيعة قد برهنت باقوى برهان على فسادها إلى درجة أنها لاترى تلوثها ولا تحس بوصمة عارها .

٥٧ يقول (بيلاجيوس) : « طالما إمكانية عدم إرتكاب الخطيئة هى فينا ، فنحن قادرون أن نخطئ وأن لا نخطئ » .

فماذا إذن لو قال آخر : طالما إمكانية عدم التعاسة هى فينا ، فنحن قادرون أن نكون تعساء أو لا نكون ! فهل هذا منطق معقول ؟ لأن الإنسان فى الواقع غير قادر أن يريد أن يكون تعيساً ، فإن التعيس يكون كمن هو محبوس فى تعاسته رغماً عنه وهو غير راغب فى هذا الوضع .

هل نحن بالطبيعة غير قادرين أن نخطئ ؟

مثل آخر كما قلت من قبل [فصل (٥٤)] : هل يجوز لنا أن نقول . طالما طبيعة الله أن لا يخطئ ، فهل نتجاسر ونستنتج أنه قادر أن يخطئ أو يتجنب الخطأ ؟ حاشا لله أن يكون قادراً على الخطأ ! وهذا لا يُنقص من عظمة قدرته كما يظن بعض الجهلاء حين يكون له عدم الموت ، أو يكون غير قادر أن ينكر نفسه .

فما الذى يعنيه (بيلاجيوس) إذن ؟ وإلى أين يريد أن يجرنا بمثل هذه العبارات المشوشة ؟ فإنه يقول بعد هذا : « إن القدرة على تجنب الخطيئة هى فينا ، فحتى لو رغبنا أن نفقد القدرة على تجنبها ، لانستطيع » .

وكأنه يريد أن يقول : أن تجنب الخطيئة شئ حتمى سواءً شاء الإنسان أم أبى . أراد أو لم يرد ولكن الحقيقة الواقعة هى أن الإنسان قادر أن

يخطئ إن أراد . ورغم هذا يؤكد (بيلاجيوس) أن طبيعتنا البشرية قد ورثت القدرة أن لا تخطئ ! .

لو أن إنسانا أرجله سليمة وقوية ، فمن المعقول أن أقول : سواء شاء هذا الإنسان أم أبى فهو قادر على المشى . ولكن لو كانت سيقانه مكسورة ومعطوبة ، فمهما أراد بقوة وصدق أن يمشى ، فليست لديه المقدرة ...

الطبيعة البشرية قد عطبت روحياً

إن الطبيعة البشرية التى تكلم عنها صاحبنا ، قد عطبت وفسدت « لماذا يفتخر التراب والرماد » ! (سى ١٠ : ٩) .

إن الطبيعة البشرية قد أعتلت ومرضت ، ومحتاجة إلى الطبيب السماوى « أشفنى يارب » (مز ١٢ : ١) هذا هو نداؤها وصراخها « أشف نفسى » (مز ٤١ : ٤) لماذا يكتم (بيلاجيوس) تلك الصرخات التقوية ، معوقاً مزيداً من الصحة والعافية بتأكيده بإصرار على قدراتها وإمكانياتها الحالية ؟ .

٥٨ يقول : « هناك أمور مغروسة فينا بالطبيعة ،مثل هذه الأمور لا تستطيع الإرادة أن تنتزعها أو تغيرها . من هنا جاء أنك تفعل أموراً لا تريدها ، أو تريد أموراً لا تستطيع أن تفعلها ، وهذا يفسر الآية « لأن الخير الذى أريده لا أفعل بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل » (رو ٨:١٥)

دور الإرادة عند بيلاجيوس

إننى أعجب ، أين ذهبت تلك الإمكانية التى أثبت أنها مغروسة فينا ، وهو يتحدث عن كائنات بشرية لا تستطيع أن تفعل ماتريد ؟! وهو بلا شك يتحدث عن إمكانية الإنسان فى أن لا يخطئ ، وليس عن

إمكانية الإنسان أن يطير ، لأننا نتكلم عن الطبيعة الإنسانية ، وليست طبيعة الطيور ! .

إنه الإنسان هو الذى يصنع الشر الذى لايريده ولا يصنع الخير الذى يريده « لأن الإرادة حاضرة عندى كل حين » (رو ٨ : ١٨) فكيف للإنسان أن يصنع الخير الذى ليس عنده ؟ وأين توجد تلك الإمكانية المغروسة فى طبيعة الإنسان أن لا يخطئ كما يتشدق بها (بيلاجيوس) ؟ .

بيلاجيوس يستشهد ببولس الرسول عكس معانى مايقصده

الرسول بولس يقرر أنه لا يسكن فيه شئ صالح (رو ٧ : ١٨) معبراً بهذا اما عن نفسه أو واصفاً فى نفسه ماهو كائن فى الطبيعة البشرية . أما (بيلاجيوس) فقد وصل فى أستنتاجاته المنطقية بأن طبيعتنا البشرية تمتلك إمكانية لا يمكن إنتزاعها عنها هى إمكانية أن لا تخطئ ، والعجيب أنه يستشهد بأقوال بولس الرسول ! .

ترى هل هو يجهل معانى الكلمات التى تشير إليها أقوال الرسول بولس ؟ ولكنها واضحة ، كما أنه ليس بجاهل حتى نقول أنه يفهم بغير ماتحمله الكلمات من معان . ولكنه يروج أفكاراً تلقى حماساً حتى بين الذين يخافون الله ، فيتهورون بها . لأن أفكاره تعنى أن كل ما عمله المسيح لأجلنا نحن البشر ، وصلبه ، وسفك دمه ، وكل نعمته لا لزوم له (١ كو ١ : ١٧) وذلك بأن يروج للطبيعة البشرية بأنها قادرة وكافية فى حد ذاتها لتحقيق البر والقداسة .

خطورة مرطقة بيلاجيوس

٥٩ المسيحيون الحريصون على خلاصهم الأبدى وهم يقشعرون من بشاعة آراءه ، يستجوبونه : لماذا تؤكد بإصرار أن الإنسان قادر أن يتجنب الخطيئة بدون نعمة الله ؟ ولكنه يراوغ فى الإجابة محاولاً أن يفلت فيقول : « إن الإمكانية الفعلية فى تجنب الخطيئة لا تتوقف على مشيئة الإنسان ، بل هى كائنة فى حتميات الطبيعة الإنسانية . وماهو كائن كضرورة طبيعية هو من رب الطبيعة بلا شك أى من الله . فكيف تتهموننى أننى أغفل نعمة الله فى حين أننى قد أوضحت أن تجنب الخطيئة هو منسوب بنوع خاص إلى الله » .

لقد فضح (بيلاجيوس) نفسه ، وصرح برأيه الذى ظل طوال الوقت كاتما عليه فى خلفية تفكيره ، ولقد أنكشف تعليمه الفاسد الذى بذل محاولات مضنية ليجعله مستوراً . فهو يجعل إمكانية أن يتجنب الإنسان الخطيئة هى من رب الطبيعة الذى غرس هذه الإمكانية فى طبيعة الإنسان بلا انفصال ، ومايريده الإنسان لاشك هو صانعه ومالا يريده لايعمله .. وعلى هذا النحو يفهم النعمة أنها هى الطبيعة البشرية وإرادة الإنسان الحرة ! .

نعمة الله عند بيلاجيوس فى طبيعة الإنسان وإرادته الحرة

فمن جهة إرادة الإنسان ، كيف يخفق الإنسان فى عمل ما يريده ، إن لم يكن قد تراكم الضعف على هذه الإرادة كما يقول الرسول مصوراً الواقع العملى : « إن الإرادة حاضرة كل حين ، ولكنى لا أفعل الخير الذى أريده » فكيف هذا ؟ .

ومن إرادة الإنسان

أما من جهة طبيعة الإنسان ، فهل هو يتحدث عن خلقتها فى البداية كاملة وبلا لوم ، وبحسب فتواه ، عندها إمكانية لا تنفصل عنها ؟ .

بيلاجيوس يحتاج إلى نعمة كى يرى فساد طبيعتنا البشرية

أم هو يتكلم عن طبيعته هو شخصياً ، بأنه لايقدر أن يضل أو يخطئ لأنه لا يستطيع ، وبناءً عليه تكون طبيعته من النوع الذى لايفسد ولا تحتاج إلى الطبيب السماوى الذى يفتح أعين العميان ، مع كونه فى غاية الإحتياج إليها لكى يستعيد قوة إبصاره ليرى طبيعته الفاسدة على حقيقتها . فالأعمى يجب أن يبصر ، ولكنه لا يستطيع ، فالإرادة موجودة ولكن القدرة مفقودة .

مقاومة الجسد !

٦٠ ثم يتعرض (بيلاجيوس) للسؤال الذى يوجه له عن الجسد ، الذى يصفه الرسول بولس بأنه ليس يسكن فيه شئ صالح ، وأنه مقاوم (رو ٧ : ١٨ ، غل ٥ : ١٧) بأن يقدم رأياً خاصاً محاولاً أن يخترق الموانع والعقبات التى يضعها أمامه الكتاب المقدس ، فيقول : « كيف يمكن لشخص نال المعمودية أن يكون الجسد مقاوماً له ؟ والرسول بولس نفسه قد أفهمنا إن الذى تعمد ليس هو بعد فى الجسد قائلاً :" ولكنكم لستم فى الجسد » (رو ٨ :٩) .

الجسد المقاوم

قبل أن نناقش ما إذا كان الجسد يقاوم المعمد أم لا ، نلاحظ أولاً أنه بقوله هذا قد هدأ من دفاعه عن الطبيعة البشرية ، حيث كان من المستحيل عليه أن ينسى تماماً كونه مسيحيا (بالرغم من أن ذاكرته ضعيفة فى هذه النقطة) أين إذن الإمكانيات المغروسة فى الطبيعة البشرية ولا تنفصل عنها ، تلك التى كان منذ قليل يتشدق بها ؟ أليس الذين لم ينالوا المعمودية هم جزء من الطبيعة البشرية ؟ .

بيلاجيوس يعترف بأهمية المعمودية حتى يكف الجسد عن مقاومته

ياليت (بيلاجيوس) هنا ، وهنا بالذات ،يفيق من سباته ، وينتهز الفرصة ، إن كان حريصاً ، ليُعدّل فى آراءه .

لقد أقر متسائلاً : كيف يمكن لشخص نال المعمودية أن يكون الجسد مقاوماً له ؟ .

بيلاجيوس يحتاج إلى نعمة كى يرى فساد طبيعتنا البشرية

أم هو يتكلم عن طبيعته هو شخصياً ، بأنه لايقدر أن يضل أو يخطئ لأنه لا يستطيع ، وبناءً عليه تكون طبيعته من النوع الذى لايفسد ولا تحتاج إلى الطبيب السماوى الذى يفتح أعين العميان ، مع كونه فى غاية الإحتياج إليها لكى يستعيد قوة إبصاره ليرى طبيعته الفاسدة على حقيقتها . فالأعمى يجب أن يبصر ، ولكنه لا يستطيع ، فالإرادة موجودة ولكن القدرة مفقودة .

مقاومة الجسد!

٦٠ ثم يتعرض (بيلاجيوس) للسؤال الذى يوجه له عن الجسد ، الذى يصفه الرسول بولس بأنه ليس يسكن فيه شئ صالح ، وأنه مقاوم

الجسد المقاوم

(رو ٧ : ١٨ ، غل ٥ : ١٧) بأن يقدم رأياً خاصاً محاولاً أن يخترق الموانع والعقبات التى يضعها أمامه الكتاب المقدس ، فيقول : « كيف يمكن لشخص نال المعمودية أن يكون الجسد مقاوماً له ؟ والرسول بولس نفسه قد أفهمنا إن الذى تعمد ليس هو بعد فى الجسد قائلاً :" ولكنكم لستم فى الجسد » (رو ٨ :٩) .

قبل أن نناقش ما إذا كان الجسد يقاوم المعمد أم لا ، نلاحظ أولاً أنه بقوله هذا قد هدأ من دفاعه عن الطبيعة البشرية ، حيث كان من المستحيل عليه أن ينسى تماماً كونه مسيحيا (بالرغم من أن ذاكرته ضعيفة فى هذه النقطة) أين إذن الإمكانيات المغروسة فى الطبيعة البشرية ولا تنفصل عنها ، تلك التى كان منذ قليل يتشدق بها ؟ أليس الذين لم ينالوا المعمودية هم جزء من الطبيعة البشرية ؟ .

بيلاجيوس يعترف بأهمية المعمودية حتى يكف الجسد عن مقاومته

ياليت (بيلاجيوس) هنا ، وهنا بالذات ،يفيق من سباته ، وينتهز الفرصة ، إن كان حريصاً ، ليُعدّل فى آراءه .

لقد أقر متسائلاً : كيف يمكن لشخص نال المعمودية أن يكون الجسد مقاوماً له ؟ .

فعليه أن يستنتج إذن أنه بالنسبة لغير المعمد هناك جسد مشاغب يمكن أن يقاومه ! وليقل لنا كيف يكون هذا : أليس فى غير المعمد طبيعة بشرية أيضاً يدافع باستماتة على عدم فسادها ؟ على أية حال ، أنه بالتأكيد قد وافق أن الطبيعة البشرية فى غير المعمدين هى فاسدة . فلو رجعنا لمثل السامرى الصالح الذى قاله الرب ، يكون المعمدون هم المسافر الذى اندملت وبرئت جراحه سواءً وهو فى الفندق الذى حمله إليه السامرى العطوف كى ما يستشفى هناك ، أو وهو معافى وقد ترك الفندق (لو ١٠ : ٣٤) .

المعمودية تجعل جراح النفس تندمل

فليتفضل (بيلاجيوس) ويخبرنا كيف أنجرح الرجل وطُرح على الطريق بين حى وميت ، وكيف شفى ؟ نحن لا نختلف أن الجسد والروح من عمل الخالق وكلاهما بلا شك من صنع الإله الصالح ، فهما صالحان وخيّران .. ولكنه التلف الذى دخل على طبيعة الإنسان ، قد حدث بإرادة الإنسان وحده ، وبناءً عليه فإنها فى حاجة أن يُعاد إصلاحها ، والحاجة ماسة جداً إلى مُخلّص هو هو الذى جبل تلك الطبيعة عينها . الآن بعدما عرفنا هذا المخلص ، وعلاجه الشافى العجيب . إنه هو الكلمة الذى صار جسدا وحل بيننا ليشفينا يحتاج إلى كل إنسان ، الصغير والكبير ، الرضيع الباكى ، والأشيب الذى أبيض شعر رأسه على السواء . لو أعترف بيلاجيوس بهذا ، فسوف لا يكون هناك أى خلاف بيننا ، وتحسم المناقشة .

معان من مثل السامرى الصالح

٦١ ولنعد إلى التساؤل بالنسبة للمعمدين ، هل لا يوجد جسد مقاوم ؟ ولنستق معلوماتنا عن هذا الأمر مما نقرأه فى الأسفار المقدسة ، فهناك آيات تشير بوضوح أن الجسد يقاوم حتى فى الذين نالوا المعمودية أيضاً . فلمن وجه الرسول تلك الآية : « الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لاتريدون (غل ٥ : ١٧) ؟ لقد وجه الرسول بولس هذا الكلام إلى كنيسة علاطية ، حيث قال لأفراد هذه الكنيسة أيضاً : « فالذى يمنحكم الروح ويعمل قوات فيكم بأعمال الناموس أم بخبر الإيمان ؟ » (غل ٣ : ٥) من الواضح أن الرسول كان يتكلم إلى مسيحيين منحهم الله أيضاً روحه القدوس ، وبالتالى لابد أن يكونوا قد تعمدوا .

الرسول بولس يؤكد ان الجسد مقاوم حتى للمتعمد

فنلاحظ إذن أنه حتى فى المتعمدين هناك جسد يقاوم ، وليست الإمكانية المغروسة فى طبيعتنا بلا انفصال أن لا نخطئ كما تشدق (بيلاجيوس) ! .

أعمال الجسد تبعد الإنسان عن الله

فعلى إى أساس يؤكد : « كيف يمكن إذن أن تكون هذه حالة الشخص المعمد ، إن الجسد يقاومه » ؟ .

ترى ماذا يعنى الجسد بالنسبة له ؟ فأعمال الجسد فى الواقع العملى (تلك التى نسميها الجسدانيات) ليست صالحة ، بل هى تؤثر تأثيراً سيئاً على كيان الإنسان كما هو واضح من الآية (غل ٥ : ١٧) .

هاهو الجسد يقاوم حتى فى المعمدين ، ولكن لاحظوا كيف يقاوم ، وماهى أساليب مقاومته ؟ تقول الآيه : « حتى تفعلون ما لاتريدون »

فرغم إن الإرادة حاضرة فى الإنسان ولكنها لا تجد الإمكانية والقدرة فى طبيعتها ...

فلنعترف إذن بحاجتنا الملحة إلى عمل النعمة بإستمرار حتى بعد العماد ، فها بولس الرسول يصرخ : « ويحى أنا الإنسان الشقى ، من ينقذنى من جسد هذا الموت » ولكن لتكن إجابتنا مثله : « نعمة الله بربنا يسوع المسيح » (رو ٧ : ٢٤ ، ٢٥) .

٦٢ لذلك فحينما يُسأل (بيلاجيوس) : « لماذا تؤكد أن الإنسان قادر أن يتجنب الخطيئة بدون مساعدة من نعمة الله » ؟ فإن السائل لايقصد نعمة الخالق ، ولكنه يقصد نعمة الخلاص من الخطيئة التى بربنا يسوع المسيح .

نعمة الله تتغلب على جسد الموت

إن كل إنسان مسيحى يقول فى صلاته : « لا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير » (متى ٦ : ١٣) فلماذا عليه أن يصلى هذه الطلبة لو كان عنده المقدرة مسبقاً أن ينجو من الشر وحده ؟ وماذا يكون الشر الذى يصلى لكى ينجو منه سوى « جسد هذا الموت » أولاً وقبل كل شئ ، ولا يستطيع النجاة منه بدون نعمة ربنا يسوع المسيح .

ومعنى « الجسد » هنا طبعاً ليس مادة الجسد فإنها صالحة فى حد ذاتها ، ولكن المقصود هى العثرات الجسدانية التى لايقدر الإنسان أن يتحرر منها لا بتداريب المتنسكين ، ولا بأعمال الأمانة ، ولاحتى بالموت نفسه ، فالخلاص منها لايكون إلا بنعمة المخلص يسوع المسيح . هذا هو معنى « الجسد » بحسب ماقصد الرسول بولس أن يبينه إذ قال :

« ولكنى أرى ناموساً آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطيئة الذى فى أعضائى » (رو ٧ : ٢٣) . لقد جلبت إرادة الإنسان تلفا هذا مقداره على طبيعتها حين عصت وصية الله ، فعلى الإنسان إذن أن يصلى لكى يُشفى ، ولا يعتمد كثيراً على قدراته وإمكانياته الطبيعية ، فإنها قد جُرحت وتقيحت وتلفت وخربت . أنها تحتاج إلى اعتراف حقيقى بضعفها ، وليس دفاعاً زائفاً عن مقدرتها . عليها أن تطلب نعمة الله ليس لكى تعمل وهى مريضة ، بل لكى تعاد خلقتها مرة أخرى بالنعمة الوحيدة التى من ربنا يسوع المسيح هذه التى يرى (بيلاجيوس) أنها لا لزوم لها ، مؤثراً الصمت عنها ! .

شهوات الجسد هى طبيعتنا الفاسدة

وياليته لم يقل شيئاً عن نعمة الله هذه ، ولم يجب على ذاك السؤال الذى وضعه لنفسه محاولاً أن يُبعد عن نفسه التهمة الشنيعة بأنه جعل نعمة الله باطلة . فلو كان لم يقل شيئاً لظننا أن رأيه يتفق مع الحق ، حيث ليس المطلوب من كل أحد أن يقول رأيه فى كل الموضوعات ولكنه إذ رد على السؤال الخاص بالنعمة الذى وجهه إلى نفسه ، بما هو كامن فى أعماق قلبه يكون قد حدد رأيه بأجلى بيان ، ذلك الرأى الذى كنا نتسلى بتخمين المعانى التى يقصدها متشككين .

بيلاجيوس كشف نفسه بعد مراوغة

٦٣ بعد ذلك أدخل (بيلاجيوس) نفسه فى ورطات وتناقضات كان فى غنى عنها ، لأنها لا تمت لموضوعنا بصلة ، ولا تمت لكتابات بولس الرسول بأى صلة فهو يقول : « إن الجسد الذى يذكره الرسول ، لا يعنى

به مادة الجسد بل أعمال الجسد . وحيث أن الإختلالات الكائنة فى الجسد هى ضد إرادة الإنسان إذن فطبيعة الإنسان لا غبار عليها ، ولكن الإنسان بحاجة إلى معالجة اختلالاته هذه ... لأنه من خلق الروح للإنسان ؟ الله بلا شك . حسنا ، ومن خلق الجسد ؟ أعتقد أنه نفس الإله . أليس إذن كلاهما صالح لأن خالقهما الإله الصالح ؟ ينبغى أن يُعترف بهذا ..

هل يخلق الله متناقضات ؟

فحيث أن الروح صالحة والجسد صالح لأن خالقهما هو الإله الصالح ، فكيف يتأتى أن يقاوم أحدهما الآخر ؟ » .

ولست بحاجة أن أسفه منطقه هذا سائلاً إياه : « من الذى خلق الحرارة والبرودة ؟ » وعليه أن يجيب : إنه الله بلا شك .. وسوف لا أتمادى فى سلسلة الأسئلة مثله ، تاركاً له أن يقرر ما إذا كانت حالتا الحرارة والبرودة صالحتين ، وما إذا كانا يتعارضان أم لا ! .

وقد يراوغ معترضاً : « إن الحرارة والبرودة هما صفات للمواد وليسا مادة » .

صحيح أنهما ليسا مادة ، ولكنهما أيضاً ينتسبان إلى الله حتى وهما خاصيتان طبيعيتان ..وبعض المواد أيضاً يضاد بعضها بعضاً كالماء والنار فلماذا لا نطبق نفس الشئ على الروح والجسد ؟ .

طبعاً نحن لا نؤكد أن الأمور هى هكذا ، فقط أردنا أن نبين منطقه المغلوط حيث يستنتج استنتاجات لا تتأتى بالضرورة من المعطيات . فإنه من الممكن لأمور متعارضة أن تعمل معا بدون أن يقاوم أحدهما الآخر ، كما نعلم عن الصحة فى أجسادنا حيث تتوازن الرطوبة والجفاف

النعمة توازن بين الروح والجسد

والبرودة والسخونة لتكون الصحة جيدة . أما حقيقة « ان الجسد يقاوم الروح حتى أننا لا نستطيع أن نفعل مانريد » (غل ٥ : ١٧) فهذا خلل فى التوازن وليس وضعاً طبيعيا .. على أية حال ، علينا أن نطلب نعمة الطبيب السماوى يسوع ليعيد التوازن بينهما ، وتنتهى مقاومتهما لبعض .

٦٤ والآن لعل (بيلاجيوس) نادم على قوله أنه فى حالة الإنسان المعمد لايقاوم الجسد الروح حيث أنهما مادتان صالحتان قد خلقهما الإله الصالح . أقول لعله نادم لأنه وافق على بعض مايقول به الإيمان المسيحى .. وسبب ندمه أنه قد أقر دون أن يقصد أنه فى حالة شخص غير معمد ، من الممكن أن جسده يكون مقاوماً لروحه وذلك بأن أقحم الفقرة : « قد سبق وأعتمد » . فإنه لو لم يُقحم هذه العبارة لكان قوله : « كيف يمكن لأى شخص (معمد أو غير معمد) أن يكون جسده مقاوما له ، حيث أن الروح والجسد كلاهما صالحان (لأن الإله الصالح هو خالقهما) ؟ .

تفنيد فتاوى بيلاجيوس

الآن لنفترض أن إنسانا غير معمد (حيث يعترف بيلاجيوس على نحو ما أن له جسد مقاوم) تقدم إليه وسأله : من خلق روح الإنسان ؟ فسيجيبه الله طبعاً ، ثم يسأل غير المعمد أيضاً ، ومن خلق الجسد ؟ فسيجيب : أنه نفس الإله على ما أعتقد . ثم نفترض أن سؤاله الثالث : هل الإله الذى خلقهما إله صالح ؟ وستكون إجابته ، لا أحد يشك فى هذا . ولنفترض أيضاً أنه وجه إليه الاستفسار الباقى : أليس كلاهما صالحاً حيث إن الإله الصالح هو خالقهما ؟ وهو يعترف بهذا .

الدفاع عن الطبيعة البشرية لا يجعل المعمودية لازمة

حينئذ بالتأكيد سيكسر غير المعمدين رقبته بنفس سيفه ، عندما يردون عليه بنفس ما استنتجه : كيف يمكن للروح والجسد أن يقاوم أحدهما الآخر وهما صالحان وخلقهما الإله الصالح ؟ وهنا ربما يراوغ مجيباً : أننى متأسف ،كان ينبغى أن لا أقول أن الجسد لا يقاوم الروح فى الإنسان المعمد ، بل كان ينبغى أن أعمم قولى بأن أجعل الجسد بوجه عام لا يستطيع أن يقاوم الروح .

أنظروا الآن ، إلى أى ركن ضيق قد حبس (بيلاجيوس) نفسه ! أنظروا أيضاً ماذا سيصل إليه الإنسان الذى لا يريد أن يصرخ مع الرسول : ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت » (رو ٧ : ٢٤) إنه سيصل إلى عدم أهمية معموديته ! لذلك هرباً من الإحراج يسأل : « لماذا أصرخ بهذه الصرخة مع أنى قد تعمدت ، فالذين يصرخون بها هم الذين لم يتلقوا بعد هذا الأمتياز من أجل نفسه بل من أجل غير المعمدين ، لذلك صرخ بهذه العبارة وأمثالها » .

ولكن فى الواقع دفاع (بيلاجيوس) عن الطبيعة البشرية يُقنع غير المعمدين أنه لا لزوم لهذه الصرخة أم هل المعمد فقد طبيعته البشرية وغير المعمد لم يفقدها ؟ أم نجعل فئة غير المعمدين يحق لهم أن يصرخوا « ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت » وفئة المعمدين التى جاءتهم المعونة يكملون الآية « نعمة الله بربنا يسوع المسيح » ! .

على أية حال ، علينا أن نقر أن الطبيعة البشرية فى حاجة إلى الطبيب السماوى يسوع المسيح كى يداويها من فسادها .

٦٥ وللمرء أن يسأل ، متى فقدت الطبيعة البشرية حريتها حتى أن الإنسان يصرخ : « من ينقذنى - يحررنى) » (رو ٧ : ٢٤) كى تعاد له حريته المفقودة ؟ فمادة الجسد لا نجد فيها أى نقيصة حتى نطلب أن نتحرر من « جسد هذا الموت » ، بل هى والنفس صالحتان لإن الإله الصالح هو خالقهما . فبالتأكيد هو يتحدث عن عثرات الجسد . فحينما تتحكم الشهوات فى الجسد يصبح جسد الموت ، وهناك دينونة عادلة ورهيبة تنتظره ، كما قال الكتاب المقدس عن الرجل الغنى وهو فى الجحيم ، (لو ١٦ : ٢٣) الذى لم يستطع أن يتحرر من شهوات جسده على الأرض ، لذلك يستطيع أن يفلت من عذابات الجحيم هناك . من أجل هذا يصرخ كل إنسان طالباً أن يتحرر : « من ينقذنى من جسد هذا الموت » (رو ٧ : ٢٤) ، فلو كانت إمكانياته الطبيعية موجودة والخيار كله راجع لإرادته ، فلماذا يتعمد إذن ؟ هل المعمودية من أجل الخطايا الماضية كى تُغفر ؟ بالطبع ، ولكن المعمد مازال يصرخ : « من ينقذنى من جسد هذا الموت » لأنه ليس فقط يطلب الرأفة والعفو عن خطاياه الماضية ، بل يطلب أيضاً أن يتحصن ويتقوى ضد السقوط فى محاربات المستقبل . أنه « يصادق ناموس الله بحسب الإنسان الباطن ولكنه يرى ناموساً آخر فى أعضاءه يحارب ناموس ذهنه » (رو ٧ : ٢٢ ، ٢٣) نلاحظ أنه يتكلم بصيغة الفعل المضارع وليس الماضى . فالحاضر هو الذى يضغط عليه وليس ذكريات الماضى . أنه يرى الناموس الآخر لا يحارب فقط ، بل يسبى قصراً إلى ناموس الخطيئة الكائن (وليس

صرخة الأنقاذ وطلب التحرر

من لم يحرره المسيح ينتظره الجحيم

الذى كان) فى أعضائه (رو ٧: ٢٣) من ثم صرخ : « ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت » (رو ٧ : ٢٤) أنه يصلى بحرقة ، ويتضرع ليأخذ معونة ونعمة من الطبيب العظيم يسوع .

فلماذا يُسكت (بيلاجيوس) هذه الصلاة ، ويكتم ذلك التضرع ؟ ثم يعوق السائل البائس الذى يطلب الرحمة من المسيح ؟

حنان المسيح

ويكون كالذين حاولوا إسكات الأعمى الصارخ إلى يسوع مانعين إياه أن يطلب النور ؟ ولكن شكرا لله ، حتى وسط الصخب والزحام من تابعى المسيح ، سمع يسوع صوت الإستغاثة (مر ١٠ : ٤٦ - ٥٢) حيث أستجابت نعمة الله التى بالمسيح يسوع ربنا (رو ٧ : ٢٥) .

٦٦ الآن ، حتى وأن كنا قد أنتزعنا من (بيلاجيوس) اعترافه انتزاعاً وقد أستقر ، أن غير المعمدين قد يحتاجون إلى معونة من نعمة المخلص يسوع ، وهذه نقطة هامة تهدم تأكيده الهلامى بالأكتفاء بقدرات الطبيعة البشرية وقوة الإرادة الحرة ، وإن غير المعمدين هم الذين يصرخون : « ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى ؟ » وهذا يبين عدم ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم الذاتية ، كما يبين أيضاً أنهم غير متمتعين بالحرية فى إرادتهم ، لأن الذى يطلب الأنقاذ والتحرر بصراخ لا يمكن أن يكون حراً .

أوغسطينوس يسجل تراجع بيلاجيوس

على أية حال ، لننتقل إلى النقطة الأخرى ، لنرى هل المعمدون يفعلون الصالح الذى يريدونه بدون مقاومة من شهوة الجسد ؟ .

الخطيئة تتملك فى الجسد

أولا ، لا خلاف أن الجسد المقصود فى الآية « الجسد يشتهى ضد الروح » (غل ٥ : ١٧) هو أعمال الجسد وليس مادة الجسد . أنها الأعمال التى تصدر عن الأهواء الجسدانية ، أو نقول مباشرة أنها الخطيئة المذكورة فى الآية : « إذن لا تملكن الخطيئة فى جسدكم المائت كى تطيعوها فى شهواته » (رو ٦ : ١٢) .

٦٧ والآية الأخرى : « الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد حتى أنكم لا تستطيعون أن تعملوا ماتريدون » (غل ٥ : ١٧) تبين أن هناك صراعاً فعلياً حتى فى المعمدين عليهم أن يتصدوا له بدون تراخٍ . وحتى لا يظن أحد أن الرسول يعطى فسحة للخطيئة ، قال على الفور بعدها : « إن كنتم تنقادون بالروح فلستم بعد تحت ناموس » (غل ٥ : ١٨) فماذا قصد الرسول بهذا ؟ الإنسان الذى هو تحت الناموس يغصب نفسه أن يتعفف عن الخطيئة خوفاً من العقوبة التى يهدد بها الناموس ، وليس حباً فى عمل البر ، فهو يبتعد عن الخطيئة دون أن يبتعد عن رغبته فى الخطيئة . وبالتالى يكون مذنباً بالرغبة والإرادة ، حتى أنه إذا لم يوجد ناموس يعاقبه ، وإذا ترك له الخيار ، فهو لا يتردد عن فعل الخطيئة التى يشتهيها سراً طالما وجدت إمكانيات فعلها .

التحرر الروحى

أما نعمة الأنقياد بالروح فإنه يقول عنها : « إن كنتم تنقادون بالروح فلستم تحت ناموس ، **هنا لا ترتكب الخطيئة ، ليس خوفاً من عقوبة الناموس ، بل حباً فى البر** ، لأن الناموس يعطى إيحاءً دائماً بالخوف ، دون أن يمنح حبا . أما

الأنقياد بالروح

بالنسبة لنا فإن « محبة الله قد أنكسبت فى قلوبنا » ، ليست بالحرفية القاتلة التى فى الناموس بل « بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

الفرق بين ناموس الحرية وناموس الحرف

أننا تحت ناموس الحرية ، وليس ناموس العبودية ، أننا تحت ناموس المحبة ، وليس ناموس الخوف ، أننا تحت الناموس الذى قال عنه يعقوب الرسول : « الناموس الكامل ناموس الحرية » (يع ١ : ٢٥) ذلك الناموس الإلهى الذى لا يرتعب منه الإنسان كعبد ، بل يُسر به فى الإنسان الباطن (رو ٧ : ٢٢) بالرغم من أنه مازال يرى ناموساً آخر فى اعضاءه يحارب ناموس ذهنه بحسب الآية : « إن كنتم تناقدون بالروح فأنتم لستم تحت ناموس (يحارب فى أعضائكم) »

الروح يجعل ناموس الله مصدر فرح فى داخلنا

فبقدر ماينقاد الإنسان فعلا بالروح ، لايقع تحت تهديد الناموس لأنه يبتهج من أعماقه بناموس الله لذلك فهو لا يعيش تحت خوف « لأن الخوف له عذاب » (١ يو ٤ : ١٨) بل يُنَفِذْ ناموس الله بملء الفرح والمسرة .

٦٨ فإن أحسسنا أننا بدأنا أن نُسر بناموس الله فى الإنسان الباطن ، فلنشكر الله على ماقد تم شفاؤه فى داخلنا ، ولنصلى كى نحصل على المزيد من الشفاء ، حيث نستمتع بملء حرية الروح لأن فى كمال الشفاء ،كمال الفرح والمسرة بالله (مز ١٦ : ١١) .

نؤمن بإمكانية شفاء طبيعتنا البشرية ووصولها إلى كمال القداسة ولكن بنعمة المسيح

نحن لا ننكر أن الطبيعة البشرية يمكن أن تكون بلا خطيئة ، ولكننا نختلف مع خصومنا عن الوسيلة التى تصل بها الطبيعة البشرية إلى كمالها . فنحن نقول أن

ليس لها المقدرة الذاتية على التقدم ، بل تحتاج بإستمرار إلى نعمة الله التى برنا يسوع المسيح . إنها محتاجة إلى معونة ومساعدة هذه النعمة كى تصل إلى كمال القداسة والسعادة التى خُلقت لتكونهما .

هناك أيضاً تعليق بسيط عن دور مقاومة الشيطان لنا ، حيث تعود (بيلاجيوس) أن يقول : « إن قاومنا الشيطان ، علينا بالتالى أن نقاومة وهو على الفور سيهرب كما قال الرسول المبارك : « قاوموا إبليس فيهرب منكم » (يع ٤ : ١٧) ، فالذين يقاومونه لا يلحق بهم أى ضرر ، أما الذين لا يقاومونه ، فإنه يتجبر عليهم متقويا حتى يمتلكهم » .

هروب الشيطان منا حين مقاومته لا يتأتى إلا بنعمة المسيح

ونحن لا نقول بغير هذا ، لأننا لا نجد كلمات أصدق من هذه . ولكن على أية حال هناك فرق بيننا وبينهم وذلك فى أننا لا نتجاهل أو ننكر معونة الله ومؤازرته لنا فى مقاومة الشيطان ونُعَلّم بهذا ، أما هم فإنهم يركزون على قوة الإرادة حتى أنهم يستبعدون الصوم والصلاة من الفروض الدينية معتبرين إياهما بدعة ! فى حين أن هذا الجنس لا يخرج بشئ إلا بالصلاة والصوم (متى ١٧ : ٢١) .

فعندما نصلى : « لاتدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير » (متى ٦ : ١٣) يكون فى ذهننا مقاومة الشيطان وهروبه منا . فنحن بهذا نطيع أوامر قائدنا كجنود له حينما يأمرنا : « أسهروا وصلوا لئلا تدخوا فى تجربة » (مر ١٤ : ٣٨) .

٦٩ ولقد أجاب (بيلاجيوس) إجابة مقنعة وصحيحة على من قالوا له : « ومن من الناس لايريد أن يكون بلا خطيئة ! إن كان هذا فى مقدور الإنسان ؟ » .

أوغسطينوس يحاول أن يجذب بيلاجيوس بلطف إلى الرأى المسيحى

وكان رده : « إن مجرد توجيه هذا السؤال يبين أن سائليه يدركون ويقرون بأن هذا الأمر غير مستحيل ، لأن كثيرين ، إن لم يكن كل الناس ، يريدون هذا بالتأكيد » .

وسوف لايكون هنا بيننا وبين (بيلاجيوس) أى خلاف فقط إن هو أعترف بالوسيلة الوحيدة التى بها يكون الإنسان بلا خطيئة ، يعترف بنعمة الله التى بربنا يسوع المسيح ، آنذاك سينتهى الجدل بيننا .ولكنه لايشاء أن يقر فى أى مكان من مقالاته ، أننا نأخذ معونة تُجنبنا السقوط فى الخطيئة عندما نصلى ... فإن كان يُقر بهذا فى دواخله سرا ، فليسامحنا لأننا شككنا فيه ويكون هو الملام على هذا ، لأنه لم يُفصح عن الرأى الذى يضمره حينما لاحقته الأسئلة عنه بل ظل يراوغ ، ولم يعط ولو تلميحاً بالرأى المسيحى الصحيح . على أية حال الأمر فى يده الآن .

لأنه بإستمرار لا يكف أن يأخذ موقف المدافع عن الطبيعة البشرية قائلاً أنه لم يعتريها أى فساد منذ أن خلقت ، وهى مفعمة بالإمكانيات والقدرات الكفيلة بجعل الإنسان لايخطئ إن هو أراد .

بيلاجيوس يخلط الطبيعة مكان النعمة

وهو يُرجع هذه الطبيعة البشرية القادرة على تجنب الخطيئة لو أراد الإنسان إلى نعمة الله . ولكنه يرفض أن يقول أى شئ عن كون الطبيعة البشرية نفسها فى حالة

فساد ومحتاجه إلى نعمة الله بربنا يسوع المسيح حتى تُشفى . كذلك لا يريد أن يقول أن الطبيعية البشرية التى شفيت محتاجة إلى معونة مستمرة لأنها وحدها غير كافية لبلوغ الإنسان إلى كمال البر .

٧٠ وسيبقى السؤال مطروحاً بين الأتقياء من المسيحيين الحقيقيين : هل وجد أو يوجد أو سيوجد أى إنسان فى حالة بر كامل فى هذه الحياة الحاضرة ولم يخطئ على الإطلاق ؟ طبعاً لا أحد يشك فى وجود حالات كهذه من البر بعد هذه الحياة الحاضرة .أما من جانبى أنا شخصياً ، لست متحمساً أن أجادل عن وجود هذه الإمكانية فى الحياة الحاضرة .

أوغسطينوس يتمنى تواجد إنسان بار براً مطلقاً

فالبرغم من الآية القائلة : « لأنه لن يتبرر أمامك كل حى » (مز ١٤٣ : ٢) والتى لا تحمل إلا معناها المباشر وآيات أخرى مثلها ، إلا أننى أتمنى أن يتواجد أى شخص أو يكون قد وجد أو سيوجد شخص قد بلغ كمال البر المطلق واجتاز حياته فى الجسد بلا خطيئة ولكن الغالبية العظمى من الناس تعتمد فى برها على المسيح ، ويلقرن كل رجائهم عليه متأكدين من صدق مواعيده ، لذلك يصلون حتى آخر يوم من حياتهم : « أغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » (متى ٦ : ١٢) .

خلاصة الاعتقاد المسيحى

فالأمر الثابت لدى كل مسيحى أنه لا يوجد طريق ، سواءً نحو كمال البر المطلق ، أو حتى نحو أقل تقدم إلى البر التقوى الحقيقى ، سوى طريق معونة النعمة التى لربنا ومخلصنا يسوع المسيح وإياه مصلوباً ، وموهبة روحه القدوس . وكل من ينكر هذا الأعتقاد لايمكن أن يُحسب من عداد المسيحيين إطلاقاً .

الرد على ما أقتبسه بيلاجيوس من كتابات الآباء

٧١ لقد آثر (بيلاجيوس) فى النهاية أن يورد بعض الأقتباسات – ليس من الكتاب المقدس – بل من مقالات آباء الكنيسة الجامعة .

ملاحظات هامة عن الإقتباس عن الآباء

وأحب فى البداية أن أسجل بعض الملاحظات على ما أقتبسه ، فقد أقتطع مايريد من الأقول وفصلها عن المضمون العام ، لذلك فإننى أعتبرها أقوالاً له هو أيضاً .

وقارئ هذه الإقتباسات يجد أنها متعادلة الرأى ، أى أنها لا تُرجح رأياً على رأى ، فلا هى تتعارض مع رأينا ولا هى تتفق مع رأيه .

كذلك لقد ضمنها بعض الاقتباسات عن مقالات لى ، ولست ناكراً لجميله ، إذ حسبنى مستحقاً أن أُعد بينهم ، وأأسف فى نفس الوقت لأنه أضفى علىَّ كرماً ، أقول عنه أنه بلا حرارة الصداقة والود .

المسيح جاء فى شبه جسد الخطيئة وليس فى جسد خاطئ

إقتباسه الأول الذى أحتاج أن أقف عنده طويلاً ، لم يذكر من أين أقتبسه ، ربما لأنه كان يجهل مؤلفه ، أو لأن اسم المؤلف سقط سهوا من سرعة النساخة ، وفى مثل هذه الحالات أعطى لنفسى الحق أن أنقاش صحة الرأى من عدم صحته على ضوء ماتقوله الأسفار المقدسة . هذا بالرغم من أنه لايوجد مايزعجنى مما أقتبسه عنه ذلك

الكاتب المجهول فإنه يقول : « لقد تشبه سيد الطبيعة ومعلمها بالإنسان تشبهاً ، لكى بغلبته على الخطيئة يوضح بجلاء أن الإنسان قادر على الأنتصار على الخطيئة » (هذا القول من مقالة المؤسسة الإلهية ٦ : ١٤ للقديس لاكتاتينتيوس) ، ومهما كان المعنى الذى يقصده المؤلف المجهول من سياق شروحاته ، ألا أننى من جانبى أومن أنه لم تكن هناك خطيئة لتُغلب فى المسيح ، حيث أنه ولد فى شبه جسد الخطيئة ، وليس فى جسد الخطيئة ذاته .

قمع الجسد بالنسبة للإنسان يختلف عن المسيح

فقرة أخرى أقتبسها بيلاجيوس من نفس الكاتب المجهول : « لقد علمنا (المسيح) بقمعه رغبات الجسد ، أنه ليس هناك ضرورة حتمية على الإنسان أن يخطئ ، بل الإنسان يخطئ لأنه يريد ويقصد هذا » (لاكتاتيتوس ٤ : ٢٥ ، مقاله : المؤسسة الإلهية) .

ومن جانبى ، فإننى أفهم رغبات الجسد على كونها الجوع والعطش والراحة بعد التعب وأمثالها (وليست شهوات محرمة) تلك الرغبات التى لا غبار عليها فى حد ذاتها ، إلا أن المغالاة فيها قد تُسقط البعض فى الخطيئة الأمر المستبعد تماماً عن مخلصنا المبارك . والإنجيل يوضح لنا أن هذه الرغبات المعقولة كانت طبيعية بالنسبة للرب يسوع إذ قد جاء فى شبه جسد الخطيئة .

٧٢ ولقد أقتبس (بيلاجيوس) قولاً آخر من المغبوط ايلاريون « عندما يتكمل الإنسان بالروح ، ويتغير إلى حالة عدم الفساد ، ينطبق عليه فى ذلك الوقت فقط تطويب انقياء القلب ، فيستطيع الإنسان أن يعاين الإله الأبدى » (القديس ايلاريون – شذرات) .

قول المغبوط إيلاريون عن نقاوة القلب

وماذا فى قول المغبوط ايلاريون يناقض مانقول نحن ؟ وماذا فيها يدعم رأى مخالفينا ؟ لست أدرى ! ، قد يقصد (بيلاجيوس) من إقتباسه ، أن يبين إمكانية أن يكون الإنسان « نقى القلب » . ومن ينكر هذه الإمكانية ! فقط نحن نؤكد أن حالة نقاوة القلب لا تكون إلا بواسطة نعمة الله التى بالمسيح يسوع ربنا ، وليس بقوة إرادتنا الحرة .

قول آخر عن البار أيوب

ثم أقتبس (بيلاجيوس) قولاً آخر من المغبوط إيلاريون عن شخصية أيوب : « لقد استوعب أيوب الأسفار الإلهية وتأثر بها وابتدأ يحفظ نفسه من كل فعل شرير ، وكان يعبد الله بقلب نقى وذهن صاف . ومثل هذه العبادة هى المقصودة بأنها أعمال البر » (شذرات عن إيلاريون) .

جهاد أيوب الروحى

ونلاحظ ، أن الكاتب يتحدث عن ماكان يفعله أيوب ، وليس عن كونه قد بلغ البر فى حياته على الأرض . بل أن أيوب نفسه كان ينتظر نعمة المخلص الذى سبق بروح النبوة ورآها (اى ١٩ : ٢٥ ، ٢٦) إلى درجة تعتبر فيها أعماله أقل بكثير عن الحد المطلوب لكمال البر .. حقا لقد كان أيوب يتعفف عن الأعمال الشريرة ، ولم يسمح لأى خطيئة فى داخله أن تتسلط عليه ، وعندما كان يداهمه فكر غير لائق ، يسرع بأن لا يدعه يصعد إلى رأسه وبالتالى إلى عمل فعلى . أن لا تكون لك خطيئة ما ، هذا شئ ، وشئ آخر أن تكون رغبة الخطيئة موجودة وترفض طاعتها . تنفيذ وصية « لاتشتهى » (خر ٢٠ : ١٧) هذا شئ ، وشئ آخر أن تحاول أن تتعفف عن ماتشتيهه لتصل إلى مستوى ماهو مكتوب : « لا تذهب وراء شهواتك (سى ١٨ : ٣٠) .

الفرق بين تلاشى الخطيئة بالنعمة ومحاربتها بأعمال التعفف

ولكن ليكن فى ذهننا بإستمرار أنه لايستطيع أن يفعل هذه أو تلك بدون نعمة المخلص يسوع ، لايستطيع أن يفعل الصلاح بدونها ، ولا يستطيع أن يجاهد فى عبادة صادقة لله ضد الأهواء الشريرة الداخلية بدونها أيضاً . أما الكمال فهو أن لا يكون لك أى مناقص على الإطلاق .

من كان عليه أن يحارب فهو مازال فى خطر ، وقد يهتز أحياناً وأن لم ينطرح . أما من لم يعد له عدو على الإطلاق ، فهو الذى يبتهج قلبه بالسلام الكامل ، هكذا من بلغ كمال البر وذروة الحق ، فهو الذى لا يكون له خطيئة على الإطلاق ، ولا توجد خطيئة ساكنة فى اعضائه ، وليس الذى مازال يجاهد متعففا عن إرتكاب الآثام على حد قول الآيه : « ليس أنا بعد الذى أفعل ، بل الخطيئة الساكنة فىّ » (رو ٧ : ٢٠)

٧٣ أيوب أيضاً أعترف أمام الله أخيراً بأنه خاطئ (أى ٤٠ : ٤ ، ٤٢ : ٦) ، وطبعا سيبقى (بيلاجيوس) عند رأيه الصحيح حين قال : « لاينبغى بأى حال من الأحوال أن نضع الأتضاع على جانب واحد مع الزيف » .

اعتراف أيوب أنه خاطئ

فأيوب ، إذ هو عابد حقيقى لله ، فكل مايعترف به هو الصدق .

معنى احتقار الله للخطاة

وللمغبوط إيلاريون أقوال أخرى ليست فى صالح صاحبنا ، فمثلا وهو يشرح الآية الواردة فى سفر المزامير : « أحتقرت كل الضالين عن وصايك » (مز ١١٩ : ١٨ ، ٢١) فإنه يقول : « لو احتقر الله الخطاة ، فإنه سيحتقر

كل البشر بلا استثناء ، لأنه لايوجد إنسان بلا خطيئة . ولكن الإحتقار هنا هو للمرتدين والمنافقين والزائفين الذى لايريدون التوبة » .

نلاحظ أن قوله لايعنى أنه لم يكن أحد من الناس بلا خطيئة (أى بصيغة الماضى) ولكن ليس أحد يوجد بلا خطيئة . وليس لى جدل مع (بيلاجيوس) كما قلتُ من قبل على هذه النقطة . ولكن إن كان أحد يرفض أن يوافق على ما قاله الرسول يوحنا : « إن قلنا أننا بلا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا » (يو ١ : ٨) - ليس أن قلنا أننا بلا خطيئة - فسيكون مخالفاً لوجهة نظر المغبوط إيلاريون الأسقف .

إيلاريون والرسول يوحنا مع أوغسطينوس فى رأيه

أننى أرفع صوتى عالياً دفاعاً عن نعمة المسيح تلك التى بدونها لن يتبرر إنسان أمام الله ، مهما كانت قوة إرادته الحرة ، والأسقف إيلاريون يرفع صوته معى دفاعا عن نفس الرأى . فلنخضع إذن لذلك الذى يقول : « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) .

٧٤ وأمبروسيوس الأسقف أيضاً له رأيه الواضح فى صفنا ، ويعارض أولئك القائلين بإمكانية وجود إنسان بلا خطيئة فى الحياة على الأرض دون أن تدعمه نعمة الله بربنا يسوع المسيح . ولقد استشهد بزكريا الكاهن وإليصابات تدعيما لقوله ، فلقد ذكر الكتاب عنهما أنهما كان « سالكين فى جميع وصايا الناموس وأحكامه بلا لوم » (لو ١ : ٦) ولقد عاشا هكذا إلى حد الشيخوخة حتى قبل موت المسيح على الصليب ، ولكنهما بالتأكيد قد عاشا على الإيمان بنعمة المسيح الآتية ، وهذا واضح من تسبحة زكريا

أقوال لامبروسيوس

حين ولد له يوحنا السابق ، وأيضاً هتاف إليصابات حين زارتها السيدة العذراء ويسوع المسيح فى أحشائها . فهذا الإيمان هو الذى ملأهما بالروح القدس الذى يسكب حب الله فى قلوبنا ، وبهذه المحبة يتبرر البار (رو ٥ : ٥) « وامتلأت إليصابات من الروح القدس .. » (لو ١ : ٤١) « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس » (لو ١ : ٦٧) .

بر زكريا وإليصابات كان قائماً على الإيمان ونعمة الروح القدس

أنه نفس الروح القدس الذى نتبرر به نحن كما يذكر لنا امبروسيوس الأسقف والذى نصلى كى يحل فينا ، وكما قال الأسقف فى التسبحة التى تنشد بها الكنيسة : أنه يُعطى لكل من يطلبه باشتياق أن يحصل على الروح القدس (امبروسيوس تسبحة ٣) .

٧٥ إن كانت أقوال امبروسيوس الأسقف تروق له ، فليتعلم منها إذ يقول : « عندما أسأل أحد اتباع المسيح ، لماذا أردت واخترت أن تكون مسيحياً ، فقد يكون رده ، لأننى أستحسنتُ هذا ، وفى رده هذا لا يُنكر أيضاً أن الله قد أستحسن له هذا . لأن إرادة الإنسان واختياره تتهيأ من قبل الله ، لأن نعمة الله غايتها ، تمجيد الله فى قديسيه . ومن يرحمه يسوع فإنه يدعوه أيضاً ، بأن يجعل إرادته تستحسن مايستحسنه الله » .

نعمة الله تهئ إرادة الإنسان

فلينظر (بيلاجيوس) إذن ، كيف ان إرادة الإنسان تتهيأ من قبل الله ، أما كيف ومتى يتم هذا التهيؤ فهذا من عمل النعمة التى بدونها لا تتهيأ الإرادة البشرية . فعليه إذن أن يأخذ أقوال امبروسيوس ككل ولا يقتطع منها مايروق له بحسب مزاجه ، لأنه بعد ذلك اقتبس عن

الأسقف القديس (امبروسيوس) قوله : « إن الكنيسة قد تجمعت من العالم ، أى من جماعة خطاة ، فرغم كونها متكونة من عناصر ملوثة إلا أن المطلوب منها أن تكون بلا تلوث ، فكيف يمكنها هذا ان لم تكن قد اغتسلت أولاً من خطاياها بنعمة المسيح ، وتواصل التعفف عن الخطايا .. بطبيعتها الجديدة التى لا تخطئ » .

نقاوة الكنيسة

ورفض (بيلاجيوس) أن يقتبس الفقرة التالية مباشرة بسبب شخصى واضح ، حيث أن امبروسيوس يقول فيها : « أنها لم تكن فى البداية بلا تلوث ، فإن هذا مستحيل بالنسبة للطبيعة البشرية ، ولكن من خلال نعمة الله أكتسبت نعمة عدم ارتكاب الخطايا فى طبيعتها ،وهكذا صارت بلا تلوث » .

وبعد معرفة مضمون هذه الفقرة ، من لا يفهم لماذا رفض (بيلاجيوس) اقتباسها ؟ فلكونها تتحدث عن التدبير والسلوكيات الواقعية الكائنة فى الحياة الحاضرة والذى يُحجم صاحبنا عن الإعتراف بها . إلا أن الكنيسة المقدسة ستصل فى النهاية إلى مستوى عالٍ جدا من النقاوة يشتاق إليه جميع القديسين حيث تتخلص من كل دنس وتصبح مهيأة لحياة الدهر الآتى حيث لا يشوبها هناك أى شر ، ولايزعجها ناموس خطيئة يحارب ناموس ذهنها ، بل تعيش أنقى حياة فى أبدية إلهية .

نعمة المسيح تنقى كنيسته

نلاحظ أخيراً قول الأسقف امبروسيوس الذى يتطابق تماما مع ماتقول به الأسفار المقدسة : « (طبيعة الإنسان) فى البداية لم تكن غير ملوثة ، لأن هذه الحالة مستحيلة » .

فكلمة « فى البداية » تعنى وقت ولادتها من آدم ، أما آدم نفسه فقد جبله الله بلا دنس ، أما المولدون من آدم بعد السقوط ، فهم أبناء السقطة وأبناء الغضب ، حيث ورثوا فى أنفسهم ماقد فسد فى آدم . لذلك يُجزم القديس امبروسيوس بوضوح إستحالة تواجد طبيعة بشرية بلا دنس بداية .

٧٦ ويقتبس (بيلاجيوس) أيضاً عن يوحنا أسقف القسطنطينية : « الخطية ليست مادة بل هى عمل شرير ، وهى ليست طبيعة فى الإنسان بل هى عملُ يخضع لإرادة الإنسان وحريته ، لذلك أعطانا الله الناموس ضدها » (فم الذهب عظة على أفسس ٢ : ٣) .

اقتباس من فم الذهب والتعليق عليه

ومن ينكر هذا ؟ إن موضوعنا الذى نجادل فيه هو عن فساد الطبيعة البشرية ، وكيفية شفاؤها بنعمة الله وبواسطة الطبيب الأعظم يسوع . هذه الطبيعة التى لو كانت فى صحتها وعافيتها لما احتاجت إلى من يشفيها . أما (بيلاجيوس) فقد أختار أن يدافع عنها بأن لديها الإمكانيات الذاتية لعدم إرتكاب الخطايا ، كما لو كانت بصحتها ، أو كما لو كانت قوة إرادتها الحرة كافية فى حد ذاتها بدون المسيح ! .

٧٧ ولقد نسب (بيلاجيوس) قولا إلى المغبوط زيستس أسقف روما ، وشهيد المسيح ، والذى يكن له كل المسيحيين كل توقير وتقدير (أكد القديس أغسطينوس فيما بعد أن القول هو للفيلسوف اليونانى سيزتس من أتباع فيثاغورس) .

زيستس اسقف روما الشهيد

والإقتباس يقول : « لقد منح الله للبشر الحرية لإرادتهم كى يكونوا أنقياء وبلا خطيئة ، وبذلك يتشبهون بالله فى هذه الحياة » .

ولكن على كل من يستخدم إرادته الحرة ، أن يسأل بإيمان معونة المسيح لكى يعطيه نعمة أن لا يخطئ . لأن الإنسان لا يمكن أن يتشبه بالله (كما أحب أن يُعبّر) إلا بالمحبة ، « والمحبة قد انسكبت فى قلوبنا » ليس عن طريق أى قدرة لإرادتنا الحرة بل « بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

وللشهيد المبجل قول يعرفه كل المسيحيين : « أن العقل الصافى النقى هو هيكل مقدس لله ، والقلب الطاهر الذى بلا خطيئة هو مذبحه المفضل » فكيف يتنقى القلب ويتطهر إلا بكونه « يتجدد يوماً فيوماً فى الإنسان الباطن » (٢ كو ٤ : ١٦) حتى يصل إلى ذاك الكمال ،

وصف درجات الكمال شئ ووسيلة بلوغه شئ آخر

وبالطبع هذا لا يمكن أن يتم إلا بنعمة الله التى فى المسيح يسوع ربنا .

وأيضاً قول الأسقف الشهيد : « الإنسان الطاهر الذى هو بلا خطيئة ، يأخذ قوة من الله أن يكون أبناً لله » .

فإنه هناك ينبه ويصف فى درجات الكمال ، وهو موضوع شيق وجذاب لدى كل الأتقياء الذين يؤكدون استحالة بلوغ هذا الكمال إلا بواسطة نعمة الله ، وعمل الوسيط الوحيد الذى بين الله والناس ، الإنسان يسوع المسيح » (تى ٢ : ٥) .

وكما بدأت وقلت ، أكرر هنا أيضاً ، أن زيستس الأسقف قد أنتقى كلماته بدقة لنفهم إن رأى إنسان وصل إلى مراتب الكمال العالية ، حتى

نعمة المسيح وراء كمالنا فى الروح

أنه يُحسب إبنا لله ، لا ينبغى أن ينسب ما وصل إليه إلى قدراته ، بل إلى نعمة الله التى أخذ منها كل شئ . لأن طبيعته البشرية فاسدة بدون النعمة ، ومنحرفة عن طرق الله . كما نقرأ فى الإنجيل : « أما كل الذين قبلوه فقد أعطاهم سلطانا أن يكونوا أبناء الله » (يو ١ : ١٢) الأمر الذى لم يكن عليه بالطبيعة ، ولايمكن أن يبلغه إطلاقاً مالم يكن قد أخذ سلطاناً بالنعمة بعدما قبل المسيح . هذا السلطان الذى يُطلب لذاته بالثبات فى المحبة التى يسكبها الروح القدس المعطى لنا فى قلوبنا .

٧٨ لدينا بعد ذلك أقتباس من أقوال القس المطوب چيروم من تفسير له على الآية : « طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) فيقول : « أنقياء القلب هم الذين لا يلومهم ضميرهم على أى خطيئة .. الإنسان الطاهر يُعرف من نقاوة قلبه ، لأن هيكل الله الذى هو قلب الإنسان ، لايمكن أن يتنجس » (چيروم تفسير متى ٥ : ٨ ، كتاب تفاسير /١ ، س ، ٥) .

اقتباس من چيروم

هذا الكمال بكل تأكيد هو ثمرة الصلاة واللجاجة وأثر النعمة الإلهية التى تجعلنا نجاهد ونحاول ونعمل لكى نصل إلى الكمال المطلوب الذى نكون قادرين فيه على معاينة الله بقلب نقى ، وهذا كلمة بالنعمة التى لمخلصنا يسوع المسيح ربنا .

وبالنسبة للأقتباس الثانى من القس چيروم ، إذ يقول : لقد جبلنا الله بإرادة حرة ، دون إن يحكمنا أى أضطرار للإنجذاب نحو الفضيلة أو نحو الرذيلة . لأننا لو كنا مضطرين فلا يكون هناك أكليل » (چيروم ضد نوڤينيانوس ٢ : ٣) .

نعمة المسيح هى وراء جهادنا الروحى

ومن لايقر بهذا ؟ أو من لا يوافق قلبياً على هذا القول ؟ من يقدر أن يُنكر أن طبيعة الإنسان خلقت على هذا النحو ؟ أما عمل الصلاح فهو من حرية المحبة ، وليس عن إجبار .. ولنعد إلى ما أكده الرسول : « محبة الله قد أنسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

فمن هو الذى يعطى الروح القدس لنا إلا ذاك الذى قيل عنه : « صعد إلى العلاء ، سبى سبياً ، وأعطى الناس عطايا » (أف ٤ : ٨) أعنى الرب يسوع .

ومن جهة أخرى ، بالنظر للضعفات التى دخلت طبيعتنا ، حتى وكأنها تبدو كميّل ضاغط حتمى نحو الخطيئة ، بالرغم من أن هذا الضعفات ليست من مكوبات الطبيعة البشرية ، فلكى ما تتوقف هذه الضعفات ، تعلمنا المزامير أن نصلى إلى الله قائلين : « أخرجنى من شدائدى » (مز ٢٥ : ١٧) (أو ضعفاتى الضاغطة) ، **فإن مجرد تقديم مثل هذه الصلاة يحتاج إلى جهاد وحرب ضد الضغوط والحتميات المفروضة على النفس فرضاً** . وهكذا بمعونة النعمة التى بربنا يسوع المسيح ، تزول الضغوط الشريرة وتستعيد النفس ملء حريتها .

٧٩ فلننتقل الآن إلى ما اقتبسه (بيلاجيوس) من كتاباتى فهو يقول : « الأسقف أغسطينوس فى كتابه عن حرية الإرادة ذهب إلى القول : العمل الذى يستعصى على الإرادة مقاومته إلى درجة الإستحالة ، أستسلم له أنه ليس خطيئة ، ولكن أن أمكن مقاومته فلا تستسلم له ،

اقتباس عن أوغسطينوس نفسه

وسوف لايكون هناك أى خطيئة . لا تخدع نفسك بل انتبه جدا .. لو كان الخداع فعّالا جدا لدرجة أنه من الإستحالة كشفه ، إن كان الحال هكذا ، ليس هناك خطيئة . لأنه لو كان الإحتراس مستحيلا تماما فكيف يكون هناك خطيئة ؟ إن الخطيئة ترتكب لو كان الإحتراس ممكنا ولم يُحترس » (أوغسطينوس ، عند حرية الإرادة ٣ : ١٨) .

مقاومة الخطيئة وعلاجها بالنعمة

هذا قولى وأنا أعرفه تماماً ، ولكن على (بيلاجيوس) أيضاً أن يتلطف ويتنازل ويفهم كل ماقيل من قبل لأن نقاشنا هو حول نعمة الله التى تساعدنا كدواء من خلال وسيطنا الوحيد (يسوع) ولسنا نتناقش عن استحالة البر . فالخطيئة أياً كانت ومهما كانت يمكن مقاومتها ولاجل هذا نحن نصلى طالبين العونة : « لا تدخلنا فى تجربة » (متى ٦ : ١٣) فلو كانت المقاومة مستحيلة لماذا نسأل العون ؟ إذن نحن يمكننا الإحتراس ضد الخطيئة ، ولكن بمعونة ذاك الذى لا ينخدع قط (المسيح يسوع) ، فهذه المعونة لها شأن كبير فى التحفظ ضد الخطيئة ، حتى أننا نقول بصدق وبلا تصنع : « أغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » (متى ٦ : ١٢) فكل خطيئة هى ذنب ضد الله ، حيث أن الخاطئ قد استهان بمعونة نعمته التى كانت قادرة أن تنقذه ولم يطلبها .

وكما أن التحفظ من الأمراض الجسدانية يكون إما بالوقاية وتجنب حدوث المرض ، أو إن حدث المرض نضمن سرعة المداواة والشفاء هكذا بالنسبة للخطيئة والشر ، فقد نجد وقاية من الذنوب حين نصلى : « لاتدخلنا فى تجربة ولكى نضمن نجاح العلاج ، تعيننا الصلاة : « أغفر لنا ذنوبنا » كى يزول الخطر الداهم ولا يتفاقم .. هنا الوقاية وهنا العلاج .

٨٠ ولكى يكون المعنى الذى أقصده واضحاً ليس (لبيلاجيوس) فقط بل ولجميع الذين لم يقرأوا مقالاتى عن حرية الإرادة التى قرأها صاحبنا .. والواقع أنه لم يقرأها بل هى التى قرأته ! وأكتب ما تعمد حذفه ، ذاك الذى لو كان قد فهمه وأقتبسه بأمانة . لما كان بيننا جدل فى هذا الموضوع . لأننى أضفت بكل وضوح وبطريقة وافية على قدر ما أستطيع متصوراً توارد الأفكار عند القارئ فقلت : « هناك بعض السلوكيات غير اللائقة ، تستحق التأديب رغم أنها معمولة عن جهل ، إلا أن السلطات الكنسية الملهمة تدينها ..كأن يرغب إنسان أن يفعل خيراً ولا يستطيع ! لذلك كانت الصرخة « الخير الذى أريده إياه لا أفعل والشر الذى لست أريده فأياه أفعل » (رو ٧:١٩) .. أنها صرخة أشخاص قد نجوا من دينونة الموت ، فهذه صرخة إنسان معاقب وليست صرخة طبيعة بشرية ، لأنها لو كانت من الطبيعة ، لا يكون هناك خطيئة . أنها العقوبة العادلة التى تدين الإنسان الذى أساء استخدام إرادته ، فتعطلت تلك الإرادة عنده ، فيفعل الشر الذى لايريده ، ولا يفعل الصلاح الذى يريده ، فلا يكون ذلك عن جهل ، حتى أنه لايستطيع أن يقاوم عادات الموت الجسدانية ، التى تبدو وكأنها محفورة فى طبيعته ، وهذه أشنع عقوبات الخطيئة فكل نفس تخطئ لابد وأن تنشأ عندها هاتان النتيجتان . الجهل والأحساس بالثقل والصعوبة . فمن الجهل تنبع مخازى الخطايا ، ومن التثقل يتولد الآلم المؤلم . فقبول الإنسان للباطل على كونه حقاً ، فيخطئ إجبارياً ، ثم يصبح غير قادر على مقاومة ضعفاته والآلام المرتبطة بأعمال شهوات الجسد . كل هذا لم يكن من طبيعة الإنسان عندما ماخُلق بل هى عقوبة

أوغسطينوس يقتبس ما أخفاه بيلاجيوس من أقواله

لإنسان تحت التأديب . فحينما نتكلم عن حرية الإرادة التى للإنسان لفعل الخير ، إنما نعنى تلك الحرية التى خُلق الإنسان عليها » .

عقوبة سوء استخدام الإرادة هو شلل الإرادة نفسها

قد يعترض البعض ، لماذا يكون الجهل والتثاقل هما مسئوليتنا نحن ، وليسا مسئولية آدم الأول وحده ، حتى تُشل إرادتنا الحرة بهذه الصورة ؟ وارد عليهم باختصار : « كفوا واصمتوا عن الهمهمة ضد الله ، لأنه حتى وان كان لم ينتصر أحد من الناس على الخطيئة ، إلا أن هناك الرب يسوع المنتصر ، يدعو كل مخلوق بنفسه بأنواع وطرق شتى أن يخدم الرب ، والذى يؤمن يعلمه ، ويعطيه رجاءً وعزاء ويشجعه على المحبة ، ويساعده فى جهاده ، ويسمعه حين يصلى . فالخطأ لا يُحسب عليك لو فرض عليك الجهل ، ولكنك تكون خاطئا إن أهملت فى البحث عن ما تجهله ، ويوجه إليك اللوم أن تماديت فى تكبيل أطرافك المجروحة ، رافضاً باحتقار ذاك الذى يريد أن يشفيها » (أغسطينوس ، عن حرية الإرادة ٣ : ١٩) .

لا غنى عن نعمة المسيح

وهكذا كنت حريصا فى أقوالى ،أن أحث الناس أن يعيشوا أبراراً أتقياء على قدر ما أستطيع ، وفى نفس الوقت لاأجعل نعمة الله باطلاً . تلك النعمة التى بدونها لا يمكن أن تستنير وتنتفى طبيعة الإنسان المظلمة الملوثة . ففى كل نقاشنا معهم أركز على أن لا نغيظ نعمة الله التى بالمسيح يسوع ربنا ، وذلك يوضع ثقة زائفة فى الطبيعة البشرية الواهنة . ولقد قلت فى موضع آخر عن الطبيعة البشرية هذه : « يوجد مفهومان للطبيعة البشرية بحسب ماتتكلم عنها الاسفار المقدسة ، المفهوم الأول

هو الطبيعة التى جُبل عليها الإنسان قبل السقوط حيث كانت كاملة وبلا لوم ، والمفهوم الثانى ، هو تلك الطبيعة التى نولد بها ، وهى تتصف بالجهل ، ويحكمها ذهن جسدى ، وهى واقعة تحت عقاب الدينونة كمثل ماقال الرسول : ونحن كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين .(اف ٢ : ٣) .

٨١ والعجيب أنهم ينسبون إلينا ما أتهم به الرسول بولس فى القديم بأننا نقول أن نبقى فى الخطيئة كى تكثر النعمة (رو ٦ : ١) ! ولكننا نقول مع الرسول أيضاً حاشا ! أننا نريد الناس أن يعيشوا حياة بارة أننا نثير حماستهم ونؤجج نفوسهم الباردة الفاترة بالحث المسيحى .. أننا نحث غير المسيحيين أن يؤمنوا ويصبحوا مسيحيين ، خاضعين لسلطان ربنا يسوع المسيح ومصطبغين باسمه العظيم القدوس لأنه بدون هذا لا يمكنهم الخلاص .. كذلك نحث المسيحيين الذين أهملوا حياة القداسة ، بالتنبيهات والأنذارات والمشوقات الروحية أن يتطهروا ، حاثين اياهم على الصلوات التقوّية ، وأعمال الفضائل ، معملين أياهم العقيدة التى آمنوا بها وخلصوا فيها وأعتمدوا عليها ، عقيدة الخلاص الكاملة ، مذكرين إياهم بأن يردوا الجميل لمخلصهم شكراً وحمداً وتسبيحاً . فقد أدخلهم ولو خطوة واحدة إلى تلك الحياة المقدسة التى دخلوها بدون تثاقل ، أما أن كان يشعرون بهذا التثاقل الآن ، فعليهم أن يصلوا بلجاجة وعمق وثقة إلى الله ، وأن يكثروا من أعمال الرحمة عن طيب خاطر كى يحصلوا من الله على نعمة السهولة والسلاسة فى

كيف تحث الناس على الإيمان

وعلى التوبة

وعلى التقدم فى الروح

الحياة الروحية . أنهم يُحرزون تقدماً مستمراً حتى ولو كان بطيئاً ، إلا أننى لست زائد القلق عن متى وأين سيكون ملء برهم ، فهم سيبلغون كمال البر فى مكان ما وفى وقت ما ، ولكن هذا فقط سوف لا يكون إلا بنعمة الله التى بالمسيح يسوع ربنا . فى وقت كمال برهم يمكنهم أن يقولوا عن معرفة واضحة وصدق ، أن ليس لهم خطيئة .. وإلا فسوف « لايكون الحق فيهم » (١ يو ١ : ٨) تماماً كالذين رغم كونهم خطاة يقولون أن ليست لهم خطيئة .

٨٢ ونحن نقتنع إقتناعاً مطلقاً ، إن « وصايا الناموس صالحة إن استخدمناها قانونياً » (١تى ١ : ٨) لأن الإله الصالح والعادل لا يمكن أن يوصى بمستحيلات **فلو وجدنا فى الوصايا الإلهية سلوكيات سهلة فإننا نعملها ، أما أن وجدنا سلوكيات صعبة التنفيذ فإننا نصلى ونسأل ونطلب من الله أن يجعلنا نعملها أيضاً .**

وعلى حفظ الوصايا

وعلى أية حال ، كل الأشياء سهلة بتأثير المحبة ، لأن بالمحبة ، وبالمحبة وحدها يكون نير المسيح هينا (متى ١١ : ٣٠) . ذلك لأن نير المحبة نفسه هو هين . لذلك قد قيل : « إن وصاياه ليست ثقيلة » (١يو ٥ : ٣) فكل من بدت وصايا الله له أنها ثقيلة ، فليرجع إلى نص الوحى فى الإنجيل المقدس ليعرف أنها « ليست ثقيلة » ، فالأمر يتوقف على إحساس القلب فإن أحس القلب أنها ثقيلة عليه أن يصلى لتتغير حالته تلك ، فيكون قادراً على تنفيذ الوصية . فهذا هو مغزى ماقيل فى سفر التثنية : « الكلمة قريبة منك فى فمك وفى قلبك » (تث ٣٠ :١٤)

المحبة تجعل الوصايا الثقيلة سهلة

وبحسب الترجمة السبعينية يضيف « وفى يدك » فبحسب الأحساس الروحى والفهم التقوى السرائرى لهذه الآية عند الرسول بولس ، أضاف : « وهى كلمة الإيمان الذى نكرز به » (رو ١٠ :٨) فكل إنسان رجع إلى الرب من كل قلبه وكل نفسه (تث ٣٠ : ٢) لا يجد وصايا الرب ثقيلة أبداً . لأنه كيف يمكن أن تكون ثقيلة ، فى حين أنها وصية المحبة ؟ فإما أن لا يكون عند الإنسان محبة ، ولذلك تكون وصية الله عنده ثقيلة ، أو أن يكون عنده محبة فلا تكون ثقيلة .

الإنسان يكون عنده محبة إن هو رجع إلى الرب بكل قلبه وكل نفسه . وعاد الرب يسوع ليؤكد « وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً (يو ١٣ : ٣٤) وأيضاً : « من أحب قريبه فقد أكمل الناموس » (رو ١٣ : ٨) وأيضاً « المحبة هى تكميل الناموس » (رو ١٣ : ١٠) .

بقيت آياتان تبدوان متعارضتين هما : « لو وطأت المسالك الصالحة ، ستجد سبل البر سهلة حقاً (١م ٢ : ٢٠) و « بكلام شفتيك أنا تحفظت من طرق المعتنف » (مز ١٧ : ٤) .

ولكن كلا الآيتين صادقتان ويتماشيان مع بعضهما البعض .. فمسالك الوصايا هى صعبة مع الخوف ، ولكنها سهلة جدا مع المحبة .

٨٣ الحب الإبتدائى إذن هو قداسة إبتدائية والحب المتقدم هو قداسة متقدمة والحب العظيم هو قداسة عظيمة والمحبة الكاملة

المحبة نعمة إلهية

هى قداسة كاملة إنها المحبة التى « من قلب نقى وضمير صالح وإيمان بلا رياء » (١تى ١ : ٥) هى أعظم ما فى

الحياة ، بل أن الحياة نفسها يستهان بها وتُبذل وبالمقارنة معها ومن أجلها . انها الأرضية التى ستبقى خالدة حتى بعد انتهاء هذه الحياة الفانية ! ولابد أنها واصلة إلى كمالها المطلق فى وقت ما وموضع ما . حتى أنه لا يُسمح بأى زيادة ..

الروح القدس نعمة النعم

هذه المحبة هى التى « انسكبت فى قلوبنا » ليست بقوانا الطبيعية ، ولا بإرادتنا البشرية بل « بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) أنه الروح الذى يعين ضعفنا ، ويسند إمكانياتنا .. الروح القدس الذى هو نعمة النعم ، إنه هو نعمة الله الذى بربنا يسوع المسيح ..

له الخلود الأبدى مع الآب والروح القدس وله كل خير وصلاح إلى أبد الآبدين آمين .